

منذ حوالي مئتين وأربعين سنة كتب الشيخ أحمد البديري الحلاق الدمشقي، مذكرات وصف فيها (حوادث دمشق اليومية)، يوماً بعد يوم، خلال أكثر من عشرين عاماً، سجل فيها الأحداث التي كانت تمر بها المدينة، والتي كان البديري يلتقطها من أفواه الذين كانوا يرتادون محله كل يوم.

حلاق وزجال ومؤرخ:

كان الشيخ البديري بحكم هذه الصلة الكثيفة بالناس، ولأنه مولع بالزجل والمواليا والكتابة، قد وجد الحافز لتسجيل كل هذه الحوادث.

ولا بدع، فالحلاق في تلك الأيام كان كالصحيفة الناطقة، تجمع الأخبار وتوزعها، وحرفته لا تعلم الثرثرة فحسب، وإنما تعلم حسن الاستماع كذلك. وأخذ الشيخ البديري يسجل باللغة الشامية الدارجة هذه الأحداث.

ولقد تناولت يدُ الصقل هذا الكتاب فحولته من العامية إلى الفصحى على يد المرحوم الشيخ محمد سعيد القاسمي، ففقدنا بذلك حرارة الأصل وصورة اللغة الدارجة في تلك الأيام، ولم تعد للكتاب مثل المتعة التي نجدها في مذكرات المعلم نعوم بخاش الحلبي التي نشرتها تباعا مجلة المشرق التي يصدرها الآباء اليسوعيون في بيروت.

على أن هذا الكتاب رغم هذا ظلت له قيمة كتاب تاريخ معاصره الجبرتي في حياة القاهرة، وتاريخ الغزي عن حلب، ومطالع السعود عن بغداد، لا من حيث الأسلوب وحده وإنما من حيث أن الحياة التي كان يصفها كانت واحدة في كل تلك الحواضر العربية.

الغلاء وعدم تفتيش الحكام:

في تلك الأيام، كما يصف البديري:

"اشتد الغلاء في سائر الأشياء لاسيما المأكولات مع وجود الأغلال وغيرها. فمن عدم تفتيش الحكام صار البياعون يبيعون بما أرادوا، غير أن الغنم كان قليلاً جداً، فصار الجزارون يذبحون الجاموس والجمل والماعز، وصار يُباع

رطل اللحم الشامي بثلاثين مصرية، والسمن رطل وأوقيتان بقرش.

وبقدوم شهر رمضان المبارك غلت الأسعار حتى الخضر. فقد كان قبل رمضان الكوسا كل مائة بمصرية، فلما هل رمضان صار كل خمسة أو أربعة بمصرية، والباذنجان كان كل رطلين بمصرية فصار كل رطل بمصريتين، واللحم عدم، وكل ذلك من عدم تفتيش الحكام..."

توزيع الحرف على الأحياء والمذاهب:

وكانت هذه الحرف موزعة على الأحياء غالباً، بحيث تجد بعض الأحياء تحمل اسم الحرفة (كالخريزاتية والديمجية والقباقبية والدباغات والغرابين والمناخلية وغيرها) كما أن بعض المهن كان لأبناء بعض الأديان والمذاهب دون غيرهم.

التنظيم العائلي

وكانت الحياة العائلية تقوم على نفس الأساس، ويسود فيها النظام (الأبوي) المعروف بالبطريركي إلى حد كبير، فهناك في كل عائلة رجل له الكلمة العليا والتصرف الفعلي في المال ولو كان غيره مالكاً بحكم الإرث أو الكسب. ومثله زوجته وهي السيدة الكبيرة، أما سائر الأولاد فيتزوجون وينجبون ويظلون في الأسرة والبيت والحرفة ويكون كسبهم مشتركاً وإنفاقهم مشتركاً، ويسود بينهم تسلسل في المراتب يسبق فيه المتقدم – سنا – المستجد.

مئتا سنة على حال واحدة:

ولا نجد ونحن نقرأ (حوادث دمشق اليومية) للشيخ البديري، فارقاً بين ما سجله من العادات الاجتماعية، وما سجله كرد علي في خطط الشام، وما سجله فخري البارودي في مذكراته. فالحياة الاجتماعية ظلت على حالها تقريباً أكثر من مئتي سنة تناولتها هذه المصادر الثلاثة، وهذا هو الذي جعلني أقول في المقدمة أن تطور الحياة الاجتماعية كان اقرب إلى الركود منه إلى الحركة، وكان تفسير ذلك أن النظام الاقتصادي ظل هو نفسه لم يتبدل، وأن الشعب بقي راسفاً فوق ذلك في قيود الجهل والتأخر يسوده سياسياً الأتراك والحكام الإقطاعيون واقتصادياً التجار والأغنياء، وفكريا جماعة من المشايخ الذين يسايرون الحكام جهلاً أو زلفى. ولم تكن في البلاد مدارس إلا الكتاتيب، وانقرضت المدارس القديمة كانت في دمشق بالمئات (أحصى منها كرد علي في خطط الشام ٤٣٨ مدرسة) فأصبحت مجرد ملاجئ لا تعرف دروس العلم إلا في القليل النادر، وفي النطاق الديني وحده.

وكان لا بد من أن تتركز التقاليد الاجتماعية حول الشؤون البارزة في ذلك الزمن:

فالشؤون العامة كانت دينية صرفاً، ومناسباتها هي عيد الفطر وعيد الأضحى وعيد المولد النبوي والأشهر الحرام وذهاب الحج وعودته عن طريق البر وما يصاحب ذلك من احتفالات بهية.

والشؤون الخاصة كانت الزواج، والولادة، وختان الذكور، وختمة الصبي بعد إتمام دراسة القرآن في الكتاب.

وما بين هذه وتلك كانت السهرات في البيوت.

أبرز ما في العادات الدمشقية الإطار:

تمتاز دمشق بطراز خاص في الهندسة والبناء. أن عناصر كثيرة حددت معالم هذا الإطار. فبردى الذي أحسن القدامى توزيعه حتى جرى في كل بيت في دمشق القديمة تقريباً، أعطى الطراوة للمدينة وأهلها، فطباعهم غير قاسية. وفي كل بيت مهما صغر أن لم نر شجرة فلا اقل من أن نرى عشرات من أصص الزريعة التي يزرع فيها الفل والورد وورق القصب والشمشير والهوا حيفا وأنواع شتى من الأزاهير. وقليلاً ما يخلو بيت متوسط أو دونه من دالية عنب طعومها زيني وحلواني وبلدي. وكان أهل الشام يقولون: (عنب الدار يطول الأعمار) أما البيوت الكبيرة ففيها شجر الليمون والنارنج والكباد وفي بعض الأحيان شجر

المشمش الهندي والشجر الذي يعطي فاكهة اسمها (الطرابزون هورمه سي - أي تمر طرابزون) وتسميها العامة درابزين خرمسي، تصفيحا للكلمة التركية. وفاكهة أخرى اسمها الفراسكين وهي نادرة.

البيت الدمشقي:
العنصر المائي في دمشق:

أن وجود الماء بكثرة في البيوت وتدفقه في البحرات وما يتبع ذلك من وجود الأشجار والأزهار بكثرة، كل ذلك جعل البيت مصيفاً في دمشق، ومكّن أصحاب البيوت الكبيرة من أن يجلبوا غير البحرة الكبيرة التي في (الديار) بحرة أخرى متدفقة في القاعة، وهي الحجرة الكبيرة التي يرتفع سقفها بعلو طابقين، وتزركش، ويكون فيها قسمان عاليان من الطرفين (أو من طرف واحد حسب مساحتها) ويسمى القسم العالي (طرز) فالماء داخل هذه القاعات يعطيها رطوبة عظيمة في الصيف، وفي نفس الوقت ولاعتدال الجو في دمشق أكثر أيام السنة، فإن الدار بغرفها العلوية الموجهة نحو القبلة، (الجنوب) تصلح مشتى. وهكذا فالدار مشتى ومصيف والحياة فيها بالنظر لكبرها واتساع العائلة (والزيارات) بين العائلات التي تدوم أياماً وأسابيع، كانت تجعل المرأة لا تخرج من دارها إلا نادراً، لزيارة أو عرس أو لتقصد حمام السوق.

ترتيب الأزقة وتأثره بالتقاليد:

وإذا زار المرء حيا من أحياء دمشق القديمة أدهشه أن يكون للبيوت أبواب ولا يكون لها نوافذ في الطابق الأرضي على الطريق، وإنما نوافذها علوية وقد تتعانق نوافذ الدور المتقابلة لتحدث تحتها طريقاً مغطاة.

ولكن العجب يزول إذا تذكر التقاليد الإسلامية التي تجعل المرأة حراماً على النظر والسمع إلا لمحارمها، ولذلك تترك لها الدار لتعيش فيها بحرية، أما الطريق فلا يعرف منها إلا شبحاً اسود مغطى من الرأس إلى القدمين، ولا ينطق بكلمة. كما أن من يعرف دقة الفكر الهندسي عند القدامى في البناء يستغرب حين يرى أزقة دمشق متعرجة، ولعل تفسير ذلك الرغبة في ستر النساء اللواتي يخرجن من دار إلى دار مقابلة خطفا، والمار في الطريق زاوية النظر عنده محدودة، وهو ملزم أيضاً بأن ينبه بصوته طيلة مسيره وربما كان هناك سبب آخر هو سهولة الدفاع عن الشوارع الدمشقية أثناء العهد الإقطاعي وفقدان الأمن، حيث كان بواردي واحد يمسك زقاقاً ويدافع عنه.

دار أسعد باشا العظم:

والقصر المعروف اليوم بقصر العظم، حيث وضعت الدولة متحف التقاليد الشعبية، مثال فخم لا يقلد عن البيوت الشامية من حيث اجتماع كل الخصائص من فن البناء والهندسة والتزيين والمرافق.

ففي هذه الدار لا توجد نوافذ على الطريق، وإنما لها باب كبير له بوابة صغيرة. ومن بعدها تدخل فإذا أنت في جناح لاستقبال الضيوف اسمه (السلاملك، من السلام) ومن بعده يبدأ قسم آخر هو (الحرملك، من الحرم والحريم).

ولقصر العظم قصة كبيرة رواها الشيخ البديري في كتابه الذي نوهنا عنه. وهي قصة النهب المنظم للشعب حتى تتكدس الثروات وتقوم معالم الجمال. ولم يكن أسعد باشا قد ابتدع بدعة بهذا، وإنما سار على نمط كل الملوك والأمراء الأقدمين، الذين شيدوا قصوراً خالدة على مر الزمن في كل بقاع العالم، ولكن حجارتها جبلت بدماء الفقراء ودموعهم، وترفها أخذ من أفواه الشعب لقيمات تنتزع بالقوة والقسر.

فقد بدأ أسعد باشا ببناء قصره في ١١٦٣هـ وانتهى منه في ١١٧٤ هجرية (١٧٥٠ - ١٧٦١ ميلادية) وقد انفق على بنائه ٢٠٠٠٠٠قرش، أربعمائة كيس كل كيس بخمسمائة قرش، وهذا لأجور العمال فقط. وحتى نعرف قيمة القروش الشرائية نرجع إلى ما ذكره البديري ونقلناه آنفاً

عن أسعار تلك الأيام، فنجد أن رطل السمن كان بقرش، فإذا حسبنا أن رطل السمن في أيامنا بعشرين ليرة، كان حاصل ما أنفقه على أجور العمال هو ٢٠٠٠٠٠ × ٢٠ = ٤ ملايين ليرة بعملة هذه الأيام. وقد لا يكون الحساب صحيحاً كل الصحة لاختلاف وفرة المواد وأسعارها، ولكن الأجور كانت بالملايين لا بمئات الألوف.

النهب المنظم:

أما المواد الأولية فأمرها أغرب. فقد نقل محمد كرد علي عن الشيخ البديري وغيره أن الخشب والبلاط والتراب وغيره كان بعضه من أملاك الباشا وبساتينه، عدا من سخرهم للبناء من الناس. وكان عدد العملة ثمانمئة. وقد جدوا في العمارة ليلاً ونهاراً، وأحضر الباشا ١٢ ألف عمود خشب عدا ما أهداه إياه أعيان البلاد.

وأوعز إلى الأطراف ألا يباع القصر مل (وهو يقوم مقام الإسمنت في أيامنا)ألا إليه، وشغل غالب بنائي البلدة ونجاريها ونقاشها، وجلب البلاط من أكثر دور المدينة، وحيثما وجد بلاطاً أو رخاماً أو أعمدة أو فساقي يبعث بمن يقتلعها ويعطي القليل من ثمنها. وكان على مقربة من مقبرة البرامكة فوق نهر بانياس قصر يقال له قصر الزهرائية مطل على المرجة الخضراء، انهدم فأخذ أنقاضه وأخذ أنقاض طاحون كانت على نهر بانياس في وادي كيوان. ونقل من بصرى أحجاراً وعمدا من الرخام. وأخذ من مدرسة الملك الناصر في الصالحية عمدا غلاظا. وهدم سوق الزنوطية فوق حارة العمارة وكان كله عقداً بالأحجار ففكه وأخذ أحجاره، كما نقل أحجاراً من جامع يلبغا. وأينما سمع ببلاط لطيف أو عمد حسنة يأتي بها شراء وبلا شراء، ويشغل العملة بكراء وبلا كراء.

ويقول: ائتوني بحجارة المرمر والرخام والسرو، وتفننوا بالبناء والنقوش والتحلية بالذهب والفضة وجلب عواميد الرخام على العجلات والبقر من بصرى، وخرب سوق مسجد الأقصاب واستجلب كل ما فيه من أحجار وأخشاب، وكل ما سمع بقطعة أو تحفة من رخام أو قيشاني أو غيرها يرسل فيأتي بها إن رضي صاحبها أو أبى.

الهدم والبناء:

وكانت الأيدي الخرقاء التي تمتد إلى الآثار فتسرق حجارتها وبدائعها وما عليها من الكتابات التاريخية، قد حملت القاضي أبا يعلى المعري حين مر ببلدة قريبة من المعرة اسمها شياث، ينقض الناس بنيانها ليعمروا به في موضع آخر على أن يقول:

مررت برسم في شياث فراعني بها زجل الأحجار تحت المعاول
تناولها عبل الذراع كأنما رمى الدهر فيما بينهم حرب وائل
أتتلفها - شلت يمينك - خلها لمعتبر أو زائر أو مسائل
منازل قوم حدثتنا حديثهم ولم أر أحلى من حديث المنازل

ثورات الفقراء في دمشق القديمة:

يقول الشيخ البديري في مذكراته:

"وفي يوم السبت ٢٨ جمادى الأولى من هذه السنة، قامت العامة وهجمت على المحكمة وطردوا القاضي ونهبوا الأفران، وسبب ذلك كثرة الغلاء والازدحام على الأفران، وقلة التفتيش على صاحب القمح والطحان والخزان فتلافى الوالي هذا الأمر وأرسل يشدد على الطحانة والخبازة ويهددهم ويخوفهم فحالاً وجد الخبز وتحسن وكسد بعدما كانت غالب الناس تبات بلا خبز".

"وعمل أسعد باشا ديوانا وجمع فيه الأكابر والأعيان وسعروا الحنطة والخبز فجعلوا غرارة الحنطة بخمسة وعشرين قرشاً، ورطل الخبز بخمسة مصاري وهذا أمر التسعير لا يستقيم على الخصوص في الشام".

وفي يوم الاثنين خامس عشر من شوال رحل اسعد باشا إلى الحج، وكان الفصل شتاء والسماء

صاحية، وكان غلاء وبعض الطاعون، وبعد سفر الباشا بقي رطل الخبز بخمسة مصاري ولكن صارت غرارة القمح بثلاثين قرشاً ثم ضجت العامة ورجموا القاضي وما أفاد شيء

التمسك بالأخلاق:

وكان الناس - العامة أولاً وآخراً - ولا يزالون متمسكين بدينهم وأخلاقهم، ويؤلمهم ما يرمونه في شيوع الفساد على أيدي الفاسدين الأغنياء والحكام. ويروي البديري عن تلك الأيام حوادث عديدة عن شيوع الفساد قال:

"وفي تلك الأيام ازداد الفساد وظلمت العباد وكثرت بنات الهوى في الأسواق في الليل والنهار. ومما تفق في حكم أسعد باشا في هذه الأيام أن واحدة من بنات الهوى عشقت غلاماً من الأتراك، فمرض فنذرت على نفسها إن عوفي لتقرأن له مولداً عند الشيخ رسلان. وبعد أيام عوفي من مرضه، فجمعت شلكات البلد وهن المومسات ومشين في أسواق الشام، وهن حاملات الشموع والقناديل والمباخر، وهن يغنين ويصفقن بالكفوف ويدققن بالدفوف، والناس وقوف صفوف تتفرج عليهن وهن مكشوفات الوجوه سادلات الشعور، والصالحون يرفعون أصواتهم ويقولون الله أكبر"

مومس تهاجم قاضي الشرع فيهدر دمها:

"وفي تلك الأيام كثرت بنات الخطا ويتبهرجن بالليل والنهار، فخرج ليلة قاض الشام بعد العصر إلى الصالحية، فصادف امرأة من بنات الخطا تسمى سلمون، وهي تعربد في الطريق سكرى ومكشوفة الوجه وبيدها سكين فصاح جماعة القاضي عليها أن ميلي عن الطريق (!!!) هذا القاضي مقبل، فضحكت وصاحت وهجمت على القاضي بالسكّين، فأبعدها عنه أعوانه، ثم جمع القاضي الوالي والمتسلم، وذكر لهم ما وقع له مع هذه العاهرة، فقالوا له هذه من بنات الخطا واسمها سلمون وافتتن بها غالب الناس، حتى صار ينسب إليها كل حاجة أو متاع. فيقولون هذا المتاع سلموني وهذا الثوب سلموني، فأخرج المفتي فتوى بقتلها وإهدار دمها تسكينا للفتنة، ففتشوا عليها وقتلوها"

الأعياد الدينية:
الأشهر الحرام:

تبدأ هذه الحفلات بالأعياد. كانت الأعياد كما هي اليوم طبعاً الفطر والأضحى والمولد النبوي ولكن كان يضاف إليها موسمان سفر الحج براً وعودته.

ولا بد من الإشارة إلى أن الدمشقيين يعنون بالأشهر الحرم، وأيضاً يحتفلون بالسابع والعشرين من رجب (ليلة الإسراء والمعراج)، وبنصف شعبان (انشقاق القمر)، وبالسابع والعشرين من رمضان (ليلة القدر) ويصوم الكثيرون منهم هذه الليالي والأشهر الحرم، وعندهم لكل يوم فيها دعاء مأثور، ولكل شهر طعام خاص، الغريبة ثم البرازق والجرادق ثم المعمول تتوالى في نظام خاص ويهتم بها الحلوانيون في مواسمها.

وكان الناس يسعون جهدهم للامتناع عن الحرام، وللصدق في القول والمعاملة، ويستكره عندهم فيها الطلاق، ويسعى فيها الواحد لمصالحة من كان مختصماً معه في غيرها، وتصفو النفوس إيما صفاء. ولا تزال في نفوس الدمشقيين أسس هذه العادات ولو أن يد الحضارة أخذت منها، فالمحاكم الشرعية تنصح بعدم إجراء الطلاق في رمضان وقد يمتنع القضاة عن تسجيله في هذا الشهر، كما أن الكثيرين ممن لا يعفون عن الموبقات في الأشهر العادية ويتعاطون الخمرة ويقاربون الحرام في معاشرة النساء، يمتنعون عنها جميعاً في رمضان ورعا أو خشية أو تحت ضغط التقاليد الاجتماعية، ويتوبون التوبة الموقتة وهم يعلمون أنهم عائدون إلى ما كانوا فيه بعد انقضائها على قول الشاعر:

رمضان ولى هاتها يا ساقي
مشتاقة تسعى إلى مشتاق

حفلات الذكر والتهليلة والمولوية:

يبدأ الذكر في (الحضرات) في بيوت مشايخ الطرق، فأول الملتقى يكون في التكية المولوية بشارع النصر، ومن هناك يذهبون إلى المسجد الأموي فتقام الحفلة النهائية فيه حتى الفجر.

وفي هذه الحفلات تقام الأذكار والتهليلة (من هلل وكبر) ويفتل الدراويش المولوية على نغمات الناي، ويحضر الحفلات من يشترك فيها ومن ليس له علاقة بها أو ليس مسلماً أصلاً وإنما يأتي للفرجة على اعتبارها من التقاليد الشعبية.

المولوية:

والمولوية طريقة قديمة اصلها تركي وفارسي ويرتدي أصحابها الطرابيش الطويلة الخاكية اللون المسماة (كلاه) وجبباً فضفاضة، ويتمتعون بقدرة عجيبة على الدوران الطويل في وضع يضعون فيه اليدين على الصدر والقلب في هيئة الخشوع بينما تشكل جببهم الفضفاضة حولهم مخروطاً لطيفاً. وهذه القدرة تأتيهم من التدريب الطويل وللمولوية آلات موسيقية تصاحبهم منها العود والقانون والكمان وآلات النقر كالنقرزان والدفوف ولكن أبرزها الناي، والنغمة الأساسية هي الصبا، ولهم بشرف تركي اسمه الصبا مولويخانة يرقصون عليه.

وقد كانت المولوية تحضر عدا المناسبات الخاصة بها حفلات دينية تدعى إليها، وقد تتقدم جنائز الأغنياء أو أفرادها أو بعض الصالحين، وينال أفرادها وأسمهم الدراويش جعالات على اشتراكهم في هذه الحفلات بعضها من الناس الذين يدعونهم وبعضها من أوقافهم الكثيرة جداً ولا سيما في دمشق وحلب.

تقاليد عيد الفطر:

ثم يأتي عيد الفطر وله تقاليد كثيرة كانت في أساسها قائمة على البر بالفقراء، وصلة الرحم وتمتين علاقات المودة بين الناس، وتذكر الناس أحبابهم من الأموات والأحياء، والأصل في هذا توزيع الفطرة على مستحقيها، والخروج إلى المقابر صباحاً قبل صلاة العيد أو بعدها وقراءة القرآن وتكليف من يقرأ القرآن ثم تزاور الناس جماعات. وكان كل موسع عليه الرزق يضع سفرة ملأى بأنواع الحلويات يطعم منها كل داخل.

الحكواتي:

الحكواتي كان منذ القدم شخصية كبيرة في المدينة. كتب عنه البديري منذ مئتين وأربعين سنة في معرض رثاء أحد الحكواتية قوله:

"توفي أبونا ووالدنا وأستاذنا ومربينا سليمان بن الحشيش الحكواتي رحمه الله. كان فريد عصره ووحيداً في أوانه، وكان يحكي سيرة الظاهر وعنترة وسيف ونوادر غريبة في التركي والعربي، ومع ذلك فهو امي لا يقرأ ولا يكتب"

وكان الحكواتي كما جاء في قاموس الصناعات الشامية، له في كل قهوة وقت مخصوص لإلقاء الحكايات وغالب أوقاته بعد المغرب وبعد العشاء. وقبل شروعه في الحكاية يحكي لهم مقدمة تسمى (الدهليز) وفيها أمور مضحكة ونصائح ثم يشرع في إتمام ما كان قدمه لهم في الليلة الماضية لأن الحكواتي يقف - كما تفعل مسلسلات السينما والتلفزيون الآن - في محل من القصة تتطلب النفوس فيه إتمامها، وبعضهم يتأذى من ذلك القطع التأذي العظيم.

وهذا من شطارة الحكواتي حتى تأتي إليه الناس في اليوم التالي.

وكان الناس في المقهى ينقسمون إلى قسمين يتحزب كل منهما لفريق من أبطال القصة المروية، وقد ينشب الشجار الكلامي بينهما. والحكواتي لا يقرأ وهو جالس دائماً، بل يقوم أحياناً ويسير بين

جماعتي المستمعين وبيده السيف المشهر ويهدر بصوته مصوراً حماسة القتال، ثم يعود، والناس خلال ذلك يعلقون أحياناً. وقد حبس ذات مرة عنترة وأبقاه في الحبس حتى يكمل في اليوم التالي فما استطاع واحد من المعجبين بعنترة أن ينام فذهب ليلاً إلى الحكواتي وأيقظه في داره ودفع له مبلغاً حتى يتم له الفصل ويخرج عنترة من الحبس، وهنا استطاع أن يعود إلى داره فينام.

الكركوزاتي:

والكركوز أو الخيال الظل، ويسمونه في لغة الفن العالمي الظلال الصينية، معروف من القدم، وموجود في الشرق الأقصى ولا سيما اليابان والصين وجاوا، ولا بد أن يكون مقدمه من هناك، وتقوم صنعته على ستارة وراءها قديماً سراج بالزيت، ثم صار الكهرباء. وعلى هذه الستارة الماثلة تسند الشخوص وهي من الجلد الملون ذي القطع المنفصلة فالرأس وحده وقد تكون العمامة وحدها (كما في شخصية كركوز لتظهر صلعته من حين إلى آخر) والأيدي وحدها والأرجل وحدها. ومن ورائها عيدان تتحرك بها الأطراف والرأس ببراعة، والكركوزاتي يحركها بأصابعه العشرة وهو يقلد الأصوات ببراعة حتى أنه يستطيع أن يسمعك صوت عراضة فيها أصوات مختلفة. وقد يكون المشهد صاخباً أو حربياً، وفي هذا براعة تقارب المعجزة، وقد حدث أن جن أحد الكركوزاتية من شدة براعته وتوزع صوته على شخصيات كثيرة، فخرق الخيمة ومد رأسه منها.

وكان الكركوزاتي يمثل، ويغني ويدق القصب والناي أو العود، ويرقص أشخاصه ببراعة ولم يكن في ألفاظه يعف عن الكلمات الرذيلة. وكان يرتجل النكات على الحاضرين أحياناً. كما كان الكركوزاتي يُلقي التعليقات السياسية.

وكان يفتتح الفصول بشعر يقول:

رأيت خيال الظل أكبر عبرة
لمن كان في علم الحقيقة راقي
شخوص وأشباح تمر وتنقضي
الكل يفنى والمحرك باقي

ولم يبق إلا قليل من الكركوزاتية في سورية مع الأسف، وتعذر إقناعهم بتسجيل فصولهم تلفزيونيا بعد تهذيبها وتنقيتها من الكلمات النابية، كما تعذر تسجيلها كما هي لغايات الدراسة رغم أن مشروعاً كان قد أعد لتنفيذ ذلك في حلب.

كما أن الحكومة التشيكوسلوفاكية كانت قد اهتمت بموضوع الكراكوزاتية ففاوضت بعضهم بأن يحضروا مؤتمر (الاونيما) وهي المنظمة العالمية لمسرح العرائس، ولكن تعذر ذلك بسبب صعوبات مادية. كما عني المستشرق الالماني جاكوب (١٨٦٢ - ١٩٣٧) بدراسة هذه اللعبة فوقف على طبع أجزاء من كتاب طيف الخيال لابن دانيال.

رأي الشيخ محي الدين في كركوز:

إن هذا الفن يجب أن يحتفظ به بتدابير عديدة لاسيما وأنه يمكن استخدامه على نطاق شعبي واسع. وليس أبلغ في وصف أهميته من قول الشيخ محي الدين بن عربي في فتوحاته المكية، في الباب ٣١٧:

"ومن أراد أن يعرف حقيقة ما أومأنا إليه في هذه المسالة فلينظر خيال الستارة وصوره، ومن الناطق في تلك الصور عند الصبيان الصغار الذين بعدوا عن حجاب الستارة المضروبة بينهم وبين اللاعب، بتلك الأشخاص والناطق فيها، فالصغار في ذلك المجلس يفرحون ويطربون، والغافلون يتخذونه لهواً، والعباد العلماء يعتبرون ويعلمون أن الله ما نصب هذا إلا مثلاً، ويعلمون أن هذا العالم مع الله مثل هذه الصور مع محركها وإن هذه الستائر حجاب سر القدر المحكم في الخلائق ومع هذا يتخذه الغافل لهواً ولعباً"

المولد النبوي:

بعد أن استعرضنا لمناسبة أفراح الأعياد الدينية ما يصحبها من احتفالات بهيجة وسهرات غير دينية، نعود إلى المولد النبوي.

كان الناس في الزمان القديم ولا زالوا حتى وقتنا هذا ولكن بصورة أخف، يحتفلون بعيد المولد النبوي احتفالاً كبيراً.

فالأسواق والشوارع تنصب فيها الزينات من الأعمدة وأغصان الشجر وتوضع عليها الطنافس والسجاد والصور التي يزهو بها كل صاحب دكان وتمثل عائلته وأفرادها وهم يحملون السلاح غالباً ويتمنطقون بالرصاص.

وتقدم الضيافات، وتتبادل الأحياء الزيارات في عراضات كبيرة يطلق فيها الرصاص، ويجول فيها اللاعبون بالسيف والترس والحكم.

وكان الحي الذي يزور حياً يهتف، صفوا الكراسي جيناكم، فيجيبهم المضيفون: يا مرحبا باللي جاي.

ولعبة السيف والترس لعبة فروسية شائعة في كل سورية ولو أنها تضاءلت نسبياً. وأشهر المناطق التي تعنى بها الآن دمشق وحلب وأرياف حلب، وقد عمدت وزارة الثقافة إلى تعليم لعبة السيف إلى أفراد فرقة الفنون الشعبية لديها (فرقة أمية) وطورت هذه الرقصة فكانت خير سفير لفنوننا الشعبية.

وكمقدمة للعبة السيف، يتعلم الشباب لعبة العصا والترس المسماة (الحكم) وهي لا تخرج في قاعدتها العامة عن لعبة السيف.

وفي المولد النبوي تقرأ الموالد وتوزع السكاكر ويبر الناس أقرباءهم الفقراء وتكون مناسبة فرح شاملة.

الحج:

لم يبق من احتفالات الحج في أيامنا هذه إلا وداع الحجاج في المطارات أو على الحدود واستقبالهم فيها. ثم نصب الزينات الكهربائية على البيوت وتقبل التهاني.

أما فيما مضى، فكان الحج سيراً على الأقدام، عرضة للمهالك، تتناوشه الأعراب بالنهب والسلب والقتل والفتك، وتعصف به الأمراض ولا سيما الكوليرا والطاعون، ولا يعود من مشقته إلا القلائل..

وكانت تقام بعثات لمرافقة الحج وحمايته فيها أمير للحج وفيها جمل يحمل السنجق والمحمل والكسوة الشريفة (لا تزال صورة وبعض آثاره المادية في متحف التقاليد الشعبية في قصر العظم في دمشق) وكان الناس يودعون الحج عند القدم والكسوة (وسميت كذلك لأن فيها احتفال تسليم كسوة المحمل) ثم يسير الحج منازل حتى يبلغ المدينة ومكة ويعود.

النقوط:

وكان النقوط ينتظر دار الحاج حين يعود، فهذا من أقاربه وأصدقائه يرسل إليه قفة من الأرز، وذاك كيسا من السكر وثالثاً يرسل البن ورابعاً يرسل السمن أو الخرفان، ويكون بهذه المشاركة تخفيف عن الحاج الذي غاب عن كسبه زمناً ومساعدة له في أن يقوم بواجبه في ضيافة المسلمين عليه. وتدوم الأفراح أسبوعاً على الأقل ثم يوزع الحاج ما جاء به من هدايا ولا سيما ماء زمزم والتمر والخواتم العقيق والمسابح والآنية النحاسية.

الاحتفالات الشخصية

الولادة:

ونبدأ بها ما دامت بها تبدأ الحياة. وحين يحضر المرأة الطلق تستدعى (الداية) وهي القابلة في الاصطلاح القديم.

والداية كانت قديمة مجهزة بآلات بدائية منها كرسي الطلق، ولا يزال يستعمل في بعض الأوساط الشعبية، لأنه يسهل جلوس المرأة وخروج المولود. والداية تلاطف المرأة وتشجعها بقولها (عيني ولدك) حتى تلد، فتساعد المولود على الخروج، وتصلح له أعضاءه التي يمكن أن

تكون تأثرت بالولادة ولا سيما عند البكر، فتصلح من وضع الرأس وقد ترده لطراوته إلى وضع سليم إذا خرج مستطيلاً أو شبه ذلك. ثم تقطع سرة المولود وتعقمها بذرور، وتساعد المرأة على خروج المشيمة (الخلاص) وقد يتأخر أياماً.

وكانت في دمشق دايات بارعات وأخريات أقل براعة، وكثيراً ما كانت تموت النساء عند الولادة نتيجة لحمى النفاس بسبب جهل الدايات بأصول التعقيم وما يحملنه إلى رحم المرأة من الجراثيم.

احتفالات الولادة:

وكانت الداية تعطي نقوطاً حسناً إذا كان المولود ذكراً، وقد لا تعطى شيئاً إذا كان المولود أنثى وتقابل بالوجوم.

ثم توضع سفرة تسمى سفرة الخلاص تأكل منها الداية والحضور.

وتستمر الاحتفالات ولاسيما بالمولود الذكر ويقدم فيها شراب مغلي (الكراوية) وعلى حسب حال أهل المولود يكون حاوياً أنواع النقول كالفستق واللوز أو الجوز وجوز الهند أو الصنوبر وتقدم في مباركة الأسبوع. وهذه العادة متابعة للسنة التي كانت توصي بأن يولم أهل المولود الذكر بشاتين وأهل الأنثى بشاة ويصنعوا منها طعاماً يسمى (العقيقة).

ثم هناك تقاليد تتعلق بحمام النفساء، وهناك حمام الفسخ، وتدهن فيه النفساء بالزنجبيل (والشداد) ويكون ذلك يوم الأربعين وبإشراف الداية وتكرم الداية بمناسبته كما يكرم أهل الحمام.

الختان:

وحين يبلغ الذكر أياماً أو سنوات، يختن الولد وإذا كانت الناس قد أصبحت تميل إلى الختان بعد الولادة بأيام تخفيفاً للألم فقد كانوا قديماً يفضلون ختانه في سن السبع سنوات لأنه يكون واعياً ويحتفل بختانه (وقد يحتفل بختان الأخوين أو الثلاثة أو أبناء العم معاً) ويلبس الطفل المختون ثوباً فضفاضاً بعد الختان يرفعه من أمام بيده اليسرى أياما، ويحتفل بالختان احتفالاً كبيراً، ويؤتى للولد بسبت فيه سكاكر وحلويات بعضها مصنوع على شكل الآلات الموسيقية والألعاب.

وكان الأكابر يحتفلون احتفالات ضخمة بالختان لأنه من شعائر الدين وعلاماته بالنسبة للولد ويروي البديري:

"إن سليمان باشا العظم عمل فرحا لختان ولده جمع فيه سائر الملاعب وأرباب الغناء، واجتمع فيه من الأعيان خلق لا يحصى، وأطلق الحرية لأجل الملاعب يلعبون بما شاؤوا من رقص وخلاعة وغير ذلك، ولازالوا على هذا الحال سبعة أيام بلياليها، وبعد ذلك أمر بالزينة، فتزينت أسواق الشام كلها سبعة أيام، وطهر في ذلك اليوم أولاداً كثيرين وكل ولد يعطيه الباشا بدلة وليرتين ذهبيتين".

وقال المرحوم فخري البارودي في الجزء الأول من مذكراته:

"بمناسبة ختاني أقام لي أهلي مهرجاناً فخماً، وزينوا رأسي بالماس والجواهر، وأركبوني حصاناً سارت أمامه صفوف الطلاب بأناشيد (سلام سلام سلام سلام)، فطاف الموكب سوق الحميدية وسوق الطويل ثم عدنا إلى دارنا.

وبعد أن أكل المدعوون ورفقائي وتلامذة الخجا الحلويات أدخلوني إلى غرفة خاصة، فأمسكني رجل قوي العضلات بينما أجرى لي الطبيب الجراح علي الساطي عملية الختان، وكانت العادة أن يجريها المزين (الحلاّق)، فلم يشف جرحي بسهولة وتعذبت ثلاثة أشهر".

الخطبة:

يقول المرحوم محمد كرد علي في خطط الشام:

"ومن عاداتهم أنه متى بلغ الشاب العشرين إلى الثلاثين أن يتولى عميد أسرته إرسال عميدة العائلة مع من ترضاه من أخت وعمة وخالة ونسيبة وبعض خواص الجيران إلى بيوت المدينة وأحيائها يبحثن وينقبن على زوجة لذلك الشاب،

وتكون قاعدتهم في خطبتهم الكفاءة من جهة الثروة والسن والأدب. ولا يزلن يوالين بحثهن عاماً كاملاً بجميع مظاهرها، وفي زينتها وفي وقت الغسيل ووقت الطبخ وتنظيف المنزل".

وعادة الدور التي يكون بها بنات في سن الزواج وهي عادة من الخامسة عشرة فما فوق أن يناط بالبنات تقديم القهوة والشراب للخاطبات فتتأمل الخاطبات مشيتها ونقل أقدامها وأدبها في تقديم القهوة في الإياب والذهاب، ويخاطبنها فيرين غنة كلامها وفصاحتها ويقبلنها ليشممن رائحة فمها ومتى أصبح الأمر تقريباً واقعاً يذهبن إلى الحمام معاويرين جسمها عارية وشعرها ويشممن آذانها وتحت إبطها ورائحة عرقها وثيابها وينقلن ذلك إلى الخاطب وعميد الأسرة مع الوصف الكامل.

أما النساء من جهة المخطوبة فيزرن الحي القاطن فيه سراً ويرسلن من يثقن به فيدخل غالب بيوت ذلك الحي باحثات عن أخلاق الخاطب وثروته وتجارته أو وظيفته، وعن عدد آل بيته ومركز تلك الأسرة في الهيئة الاجتماعية. كما يذهبن بالمخطوبة سراً إلى مقر الخاطب أو طريق ذهابه وإيابه فتراه فإذا راق في أعينهن بعد تلك الاستخبارات يرفعن الأمر إلى عميد أسرة المخطوبة.

وهنا تنتهي مهمة النساء ثم يتألف وفد من عميد أسرة الخاطب والبعض من معارف عميد أسرة المخطوبة، ويذهبون إلى الأخير طالبين منه الموافقة على زواج تلك البنت من ذلك الشاب.

القران والزفاف:

ومتى تقرر ذلك واتفق على المهر قرأت الفاتحة، وبعد أيام يقدم الخاطب خاتم الخطبة، وبعد أسبوع يحتفل بالعقد وغالباً يكون في دار المخطوبة فتوزع قراطيس الحلوى والملبس بعد قراءة المولد ويكون حفلة القران في العادة على حساب أهل العروس.

ومن بعد ذلك يقرر موعد الزفاف وقد يكون في نفس اليوم، ومتى عيّن يحمل أهل العريس إلى أهل العروس هدية يسمونها (التعيينة) وتكون حفلة الزفاف ليلاً، ويؤتى بالعروس مع عدد من قريبات الطرفين في عربة، ويدعى إلى الحفلة المغنيات والمطربات، وبعد أن تدخل العروس مع عريسها إلى غرفتهما يبقى المدعوون في غناء ورقص وطرب حتى الصباح.

هذا عند النساء، أما عند الرجال فيقوم أصدقاء العريس بإلباسه ثيابه الجديدة في حفلة يحضرون فيها حلاقته ثم تلبيسه مع الأهازيج ويعمد أصدقاؤه إلى شكه بالدبابيس، ثم يذهبون به في عراضة إلى بيت العروس مع الأهازيج.

السيران:

ولكثرة المتنزهات الجميلة حول دمشق كان (السيران) وهو النزهة المصحوبة بطعام، من أبرز ما يعنى به الدمشقيون.

وغالباً ما تكون السيارين في الربيع والصيف، وقد تمتد إلى أوائل الخريف، وتدور في أيام العطل والأعياد.

وكان الناس قديماً يذهبون إلى السيران راكبين الخيول الرهوانة، أو الحمير من هيلبية وقبرصية وقروية، ويسير فرسان كل فئة على حدة إلى مكان السيران، أو يتخذون العربات ذات الخيول.

أما اليوم فصارت السيارين بالسيارات، وحتى للمحلات القاحلة كالصحراء، ولكن المبدأ لم يتغير.

الحمام:

والحمام من التقاليد الدمشقية الأصيلة والتي إن لم تنفرد بها دمشق فتتميز بها بسبب وجود المياه الدافقة الموزعة في حماماتها من القدم.

والحمام يقصده الناس للنظافة بالطبع، ولكنهم كثيراً ما كانوا يقصدونه للتسلية، فيستأجرون الحمام من بابه يوماً أو أياماً، ويأخذون معهم آلات الطرب والمغنين والظرفاء ويظلون فيه يأكلون

ويشربون ويسمعون الموسيقا، فكأنها نزهة على بلاجات هذا الزمن. والحمام يوزع أوقاته بين النساء بعد الظهر والرجال من الليل إلى ظهر اليوم التالي.

ولقد أُتيحت لي فرصة قراءة الدراسة الممتعة عن حمامات دمشق، والتي قامت بها الباحثة والصحفية السورية السيدة عزيزة السبيني، ونشرتها مجلة المعرفة، في عددها (٥٣٢، كانون الثاني ٢٠٠٨) والتي جاء فيها أن الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك بن مروان، خطب في أهل دمشق يوم أتمَّ بناء جامع أمية سنة (٩٦) للهجرة: "يا أهل دمشق إني رأيتكم تفخرون على الدنيا بأربع: بهوائكم، ومائكم، وفاكهتكم، وحماماتكم، فأحببت أن أزيدكم خامسة وهي هذا الجامع".

لقد انتقلت الحمامات من دمشق مع جميع فنون وعادات الدولة الأموية إلى الأندلس، وبغداد، ثم القاهرة الفاطمية واستنبول العثمانية.

وتعد الحمامات العامة من معالم دمشق التاريخية الهامة التي تلقي ضوءاً ساطعاً على بنية المجتمع وعاداته وتقاليده.

وأصبحت مهنة يتوارثها الأبناء، وكان لهذه الحرفة شيخها أيضاً، شأن بقية الحرف في دمشق. وعندما كان عدد سكان مدينة دمشق عام (١٣٠٩) نحو (١٥٠,٠٠٠) نسمة كان في المدينة ستون حماماً. واليوم وبعد أن بلغ عدد سكانها بضعة ملايين لم يعد في المدينة إلاّ أقل من عشرين حماماً تناضل من أجل البقاء على الرغم من المغريات الكثيرة التي تقدمها والمتمثلة في حمامات البخار والتدليك والسونا وغيرها.

وتتابع الباحثة السيدة السبيني حديثها الممتع عن تقاليد الحمام الدمشقي فتقول: خضع الحمام الدمشقي لتقاليد وأعراف خاصة لا لأنه كان وسيلة من وسائل النظافة بل لأنه يعتبر وسيلة من وسائل المتعة والانشراح ومكاناً مريحاً يستمتعون فيه بجماله الفني كما يستمتعون بحرارة مائه ودفئه. ولذلك زينوه فأبدعوا في زينته وتزيينه، حتى غدت الحمامات الدمشقية آية فنية معمارية رائعة، وميزة تمتاز بها دمشق عن غيرها من حواضر الإمبراطورية الإسلامية.

وكان بدمشق حمامات للرجال وأخرى للنساء، وغالباً ما كان الحمام الواحد يخصص من الظهر إلى بعيد الغروب للنساء، ثم يخصص بقية الفترة للرجال. وسواء كانت الحمامات مصممة وفق مخطط دائري أو مستطيل، فإن أجزاء بناء الحمام هي نفسها في كل حمام. باب رئيسي، وهو عادة صغير وبسيط ينفتح على قاعة لخلع الملابس (البراني)، غالباً ما تكون مربعة، مسقوفة بقبة ومجهزة بمقاعد من الخشب مزودة بوسائد، ويتوسطها حوض بنافورة ماء. في هذه القاعة يخلع الزبائن ملابسهم ويستريحون بعد الاستحمام، وبعد أن يدثروا بمناشف ساخنة ونظيفة ليشربوا الشاي. ويؤدي دهليز ملتو - يغلق بباب من طرفيه - إلى القاعة الباردة، وهي قاعة غير مزودة بجهاز للتدفئة، إلاّ أن القسم المدفأ المجاور للقاعة يعمل على تعديل برودتها، وهو صالة شتوية تستخدم عادة لتغيير الملابس لكبار السن والمرضى. تهيئ القاعة الدافئة (الوسطاني) الانتقال إلى القاعة الحارة (الجواني). وهي مجهزة بغرف صغيرة ملحقة (المقصورات) مخصصة للعناية الجسدية والاستحمام وتجاور موضع المرجل الذي تتلقى منه البخار مباشرة بواسطة سلسلة من ثقوب في حائط مشترك. تعد هذه القاعة بفضل درجة الحرارة المرتفعة مكاناً للتعرق (ساونا) تولد غرفة المراجل - التي يزود موقدها بالنشارة أو بالروث أو بالقش - البخار والماء الساخن ليرسل عن طريق شبكة من الأنابيب إلى أحواض رخامية مختلفة موزعة في القاعات وخاصة في المقصورات، ويجري تفريغ الدخان عن طريق مسلك يمر تحت أرضية الغرف الحارة، ثم عبر مدخنة بين القاعتين الباردة والدافئة يبلغ ارتفاعها من خمسة إلى ستة أمتار فوق السطح.

ولما كان الاحتفاظ بالحرارة أمراً جوهرياً، فقد جعلت جدران الحمام ثخينة، وعدد الفتحات فيها قليلة جداً. ينير قاعة خلع الثياب طوال الوقت

تقريباً فانوس معلق في أعلى القبة، وأحياناً نوافذ منخفضة في الواجهة في حين لا ترى القاعات المدفأة النور إلاّ بواسطة أقراص من الزجاج الثخين ترصع القناطر أو مثبتة في أطراف أنابيب من الفخار التي تعبر البناء على نحو ظاهر للعيان. وتبنى الجدران - التي تبلغ ثخانتها نحو متر واحد - من الدبش (حجارة المقلع)، وتبنى القناطر - التي تبلغ ثخانتها وسطياً اثنين وعشرين سنتيمتراً - من الآجر المسطح، بأطناف متتابعة تصل إلى ثلث ارتفاعها، وبتقوس دائري فيما بعد يكسو كل الجدران الداخلية، ما عدا جدران قاعة خلع الثياب حين تكون حجارتها مرئية، طبقة من الجص والكلس. وتختصر الزخرفة عموماً - هي بسيطة دائماً - إلى مقرنصات تحقق الوصل بين القناطر والسطوح المضلعة، والمربعة والمستطيلة والمثمنة وذات الاثني عشر ضلعاً في مختلف القاعات.

وإذا أراد الرجل الذهاب للحمام كان عليه أن يعد مواد التنظيف سلفاً وهي (الصابون، والسدر، والأشنان) وعندما يهم بدخول الحمام يتفحصه القيم، فإن آنس فيه الغنى والوجاهة، رحب به وتركه يدخل، وإلاّ (شارطه) مسبقاً على الأجرة ويدخل الرجل إلى (الجواني) فإن شاء اختار (مقصورة) خاصة به، وإن شاء استحم مع غيره. وبعد الحمام يستريح الرجل في (البراني) وهناك يجامله الناس ويتبادلون معه عبارات مألوفة منها: نعيماً، حمام الهنا، عقبال حمام العودة من الحج إن كان الرجل شيخاً. وبعد تناول المرطبات يرتدي ثيابه، وعند الباب يبدأ الحساب، فإن كان استحم في مقصورة خاصة فعليه درهم، وإلاّ فنصف درهم.

أما الطاقم الذي يعمل داخل الحمام فيتألف من:

(المعلم) وهو صاحب الحمام ويتعاطى في كسوة الزبائن في القسم الخارجي.

(المصوبن) ومهمته الغسيل والتدليك لمن أراد.

(القهوجي) يسقي القهوة للزبائن.

(الأجير) ومهمته أخذ الأحذية وتقديمها إلى أصحابها.

(القيمي) ومهمته إيقاد النار في الأقميم والإشراف عليه والحصول على الوقود والزبل ونشره ليجف.

(التبع) وهو عامل يقدم للزبائن المناشف إذا كانوا من متوسطي الحال أو من الفقراء.

ويتبدل طقم التشغيل بالعنصر النسائي في أوقات الحريم ويتألف من:

(المعلمة) وهي التي تقوم باستقبال الزبونات وتقبض منهم الأجرة وتكون في كامل زينتها.

(الأسطة) ومهمتها كمهمة المصوبن لدى الرجال.

(البلانة) وهي التي تقوم بتدليك البدن وصبغ الشعر وتقوم أحياناً بحمل (البقج) والبقجة هي قطع مطرزة من القماش تضع المرأة فيها ثيابها وأشياءها، ثم تلفها وتعقدها فتصبح جاهزة للحمل وتستخدم كحقيبة للنساء.

(زقاقة البارد) وهي التي تأتي بالماء البارد وتضيفه إلى الماء الساخن ليصبح مقبولاً.

(الناطورة) ومهمتها حراسة الثياب وتأتي للنساء بالمناشف وتلف أجسادهن بها.

والحمام بالنسبة للنساء له شأن آخر فهو بالنسبة لهن نزهة وفرصة لإثارة الأخريات، لذلك كانت النسوة يأتين بكامل زينتهن مع حاشيتهن وغالباً ما يعد لهن الحمام مسبقاً ويصطحبن معهن في بعض الأحيان المغنيات لينطلق بمرحهن دون قيود ولساعات طويلة.

وفي الحمام كانت تتم (الخطبة) فهو ملتقى ومكاناً مناسباً للأم التي تبحث عن شريكة لحياة ابنها. فهي ترى الفتيات وهن غير متبرجات، بقسمات أجسادهن ونبرات أصواتهن إلى غير ذلك، وتتعرف على اسم الفتاة واسم أسرتها ومكان سكنها ووضعها الاجتماعي.. وتذكر بعض المصادر التاريخية أن عدداً غير قليل من النساء كن يتعرين تماماً في الحمام، وهذا هو وجه الاختلاف مع حمام الرجال وذلك رغماً عن تحذيرات الحكام لهن

بضرورة التستر: (في حدود سنة ٧٧٢ للهجرة أمر نائب دمشق، سيف الدين منجك بإلزام الناس بالتستر بالمآزر عند دخول الحمامات). وكان من عادة النساء أن تصطحب كل واحدة منهن بقجة تحوي ملابسها النظيمة والمناشف وإذا كانت من الميسورات فإنها تضع بين ثيابها (فوطة الحمام) وهي عبارة عن قطعة قماش مستطيلة الشكل مصنوعة من الحرير الطبيعي ومطرزة بخيوط ذهبية وتشتهر بصناعتها مدينة حماة، بالإضافة إلى الكيس الذي يحوي الطاسة والصابونة والترابة الحلبية والمشط وكيس الحمام والليفة والحناء، وأنواع الطيب، وبعض النسوة كن يحضرن معهن معجوناً من أجل تدليك أجسادهن فتنبعث منه رائحة الزنجبيل خاصة إذا كانت المرأة (نفساء) وهذا المعجون يسمونه (الشداد) لشد عضلات الجسم ويتكون من الزنجبيل والدبس والعسل والقرفة ولسان العصفور (وهو نوع من البهارات) والآس والزيت والبيض.

كذلك يأتين بالطعام والشراب، وعادة تناول النسوة الطعام في الحمام يعكس شكلاً من أشكال الحياة الشعبية الدمشقية، له طابعه ونكهته، ونستطيع من خلاله استشفاف الكثير من حياة القوم وتقاليدهم، بل وأخلاقهم وسلوكهم ومستويات حياتهم. فالفقيرات منهن ينزوين مع من معهن في أركان منعزلة عن العيون يتناولن طعامهن بهناءة وقناعة ونفس رضية.. بعيداً عن مظاهر التكلف والمباهاة للظهور بالمظهر اللائق أمام الأخريات.

أما الميسورات (المسعدات) فيعرضن أطعمتهن مستعينات (بالبلانة) وأحياناً (الأوسطة) في شبه مظاهرة - تثير اللعاب - على ملأ من الجميع سواء في الوسطاني أو البراني.

وقد يكون طعام الحمام من حواضر البيت كالزيتون والجبن والمكدوس، وبخاصة، الزيت والزعتر طعام الحمام التقليدي لدى الجميع.. أو يعددن ذلك طعاماً مشتركاً كالمجدرة أو الكشكة الخضراء المزينة بمبشور الجوز ومفروم البقدونس وحبات الزيتون والنعناع والزيت ويصحب ذلك أطباق مخلل اللفت والفليفلة والبصل الأخضر وينتهي الطعام عادة بتناول الفواكه.

أما طعام الأطفال فهو عبارة عن لفائف (عرائس) الخبز المدهون بالزيت والزعتر وبعض الفواكه حسب أوانها من البرتقال والخيار والجزر الأحمر والخس وقطع من رأس كرنب غالباً ما يكسر على طرف جرن الحمام.

ومن المناسبات الخاصة التي كان للحمام دور أساسي فيها عند النساء مناسبات الزواج والنفاس.. وحمام العرس يتم بتوجيه أم العروس الدعوة لأهل العريس والعروس من النساء قبل أن يتم الزواج ويتم بحجز الحمام على حساب (الحماية) أم العروس. يذهب الجميع إلى الحمام ويحجز لهن جناحاً خاصاً يأخذن فيه حريتهم بإحياء فرحتهن. وبينما يحممن بعضهن بعضاً تجلس (الأوسطة) العروس أمامها وتشرع في تحميمها على أصداء الأهازيج والمواويل والعتابا والميجانا والحنايينا والزغاريد. خلال ذلك تكون عجينة الحناء قد اختمرت فتوضع على شعور السيدات المسنات المقدرات لصبغ شعورهن البيضاء.. ويبقين على هذه الحال من الفرح والطرب والحبور حتى يجهز الطعام ويصل إلى الحمام.

ويختلف طعام حمام العرس بحسب الوضع الاجتماعي والمادي لأسرة العريس. فقد يكون عادة صدور من الخاروف المحشي أو الصفيحة.. وقد يكون عادياً يقتصر على الكشكة الخضراء وتوابعها مع المجدرة، وبعض الفواكه والكرنب والجزء وما شابه ذلك. وما إن تنتهي النسوة تخرج العروس وحولها الجميع بالزغاريد إلى دار أبيها. وبعد الزواج تقوم أم العريس بتوجيه الدعوة بعد أسبوعين من الزواج سداداً منها لحمام أم العروس ويطلق عليه (حمام الغمرة) وتجري فيه نفس عادات وتقاليد حمام العرس.

وهناك أيضاً (حمام الولادة) ويكون اعتباراً من اليوم السابع للولادة حتى اليوم الواحد والعشرين، على أن يتم في يوم إفرادي أي سبع، تسع، أحد عشر. وتفسير ذلك في اعتقادهن أن الاستحمام في يوم من أيام الإفراد الواقعة بين اليوم السابع من الوضع واليوم الواحد والعشرين يجعل حليب الأم كامل التكوين.

وفي هذا الحمام تأخذ النفساء مع بعض أقاربها من زوجها وأهلها إلى الحمام، حيث تجلس على مسطبة بيت النار. وتدهن بمزيج مائع كثيف القوام مؤلف من الزنجبيل والدبس وحبة البركة يسمى (الشداد) لأنه يشد عروق النفساء ويعيدها خيراً مما كانت عليه قبل الحمل.. وبعد ذلك تستحم ويستحم من معها لتبدأ الفترة الثانية وهي فترة الغذاء حيث تجد في انتظارها طعاماً خاصاً يتألف من مرق اللحم المسلوق أو المقادم، فتشرب منه ما تستطيع كي يكثر حليبها كما يعتقدن ثم تدثر حتى تعرق.

أما (حمام الأربعين) فيكون بعد الولادة بأربعين يوماً تؤخذ النفساء إلى الحمام مع أهلها والقابلة (الداية) وتجلس في مسطبة بيت النار وتدهن بالشداد مضافاً إليه العسل. وتجلس على ممر بيت النار حتى تعرق وفي أثناء ذلك تسقى الحليب المغلي وبضع بيضات نيئات وبعد ذلك، تستحم مع المدعوات وتخرج بالزغاريد إلى الوسطاني في موكب حافل، وفي الوسطاني تنشف النفساء، بمناشف مقصبة حريرية خاصة ويخرجن إلى البراني، فتستقبلهن المعلمة والناطورة والأوسطة والبلانة، فتساعدهن على ارتداء ملابسهن.. ويأخذن الإكراميات مضاعفة، ولا سيما إذا كان المولود ذكراً.

توزيع الحمامات في دمشق:

ثمة علاقة بين توزع الحمامات في دمشق وما كان عليه الدمشقيون من تقى وورع وتمسك بالدين، فقد ربطوا توزع الحمامات بالمدينة بتوزع مساجدها فكان على جوار كل مسجد حمام، وكان بالطرق المؤدية إلى مداخل المسجد الأموي حمامات نذكر منها: حمام نور الدين بالبزورية، وحمام باب البريد، وحمام العقيق (الملك الظاهر) وحمام المؤيد (السلسلة) عند باب الناطفيين (الكلاسة) للمسجد الأموي، وحمام درب العجم (النوفرة) عند باب جيرون للمسجد المذكور. بالإضافة إلى حمام سامي وحمام منجك.. وقلما تجد مسجداً في المدينة ولا تجد بالقرب منه حماماً.

ويذكر ابن عساكر (٥٧١هـ) في تاريخه الكبير سبعة وخمسين حماماً. ثم جاء بعده ابن شداد (٦٨٤هـ) فزاد عليها حتى بلغت خمسة وثمانين حماماً، ثم أضاف إليها الحمامات التي بخارج سور المدينة فبلغ مجموع ما ذكر مئة وسبعة عشر حماماً. وأشهرها:

حمام العفيف: وينسب إلى الشيخ محمد العفيفي. حمام الجوزة. حمام السلطان: وسمي بذلك لأن السلطان سليماً كان يتردد عليه.

حمام قصر العظم: وهو نموذج لحمامات القصور الدمشقية القديمة والدور الخاصة ويعتبر من الحمامات التي حافظت على رونقها وطابعها ومكوناتها دون المساس بأي جانب منها.

حمام النوفرة، حمام نور الدين الشهيد، وحمام التوريزي وحمام الزين. ومعظم هذه الحمامات يعود بناؤها إلى القرن الرابع عشر الميلادي.

هذا عن الحمام أيام زمان، أما في هذه الأيام فقد أصبح دخول الحمامات حصراً على الغرباء والفقراء، أو هو نوع من الفانتازيا لمن يريد أن يعيش طقساً من الماضي في مدينة عرف أهلها بجدهم وهزلهم كيف يضفون عليها طابقاً خاصاً لا يجتمع في مدينة أخرى.



غصة ريشة على وتر حزين

شعر: جابر خير بك

في أربعين المرحوم أخي عبد الكريم

أخنــى الزمــان وغــاب الفــارس البطــلُ
هيهــات أنســاكَ يومــاً أيهــا الرجــلُ
تـــركتني بـــين أفكـــارٍ وأســئلةٍ
بعــد الرحيــل. ففاضــتْ بالأســى المُقــل
ورحـــتُ أســترجع الماضــي ومــا أخــذتْ
تلــكَ الســنونُ وأيــامُ الصِــبا الأُوَلُ
لَهْفــي علــى ذكريــاتٍ بــتُّ أشــربُها
مــع الــدموع كمــاء المُــزنِ تنهمــلُ
تمــر في الصــدر نيرانــاً مؤججــةً
كأنهــا مــن لهيــب الشــوق تقتتــلُ
هــل في زوايــا /الحِمــى/ ركــنٌ بــلا أثــرٍ
منّــا، تغــصُّ عليــه الــروح والغُلَــلُ
إنْ أيقظــتني خيــوط الفجــر طــالعني
وجــهٌ صــبوحٌ وتلــك الأعــين النُجُــلُ








فيهـــا خلقنـــا وشـــبتْ في مـــدارجها
آمالنـــا والهـــوى العـــذريُّ والغـــزلُ
في كـــل ثانيـــةٍ طيـــفٌ يلاحقـــني
حتـــى ولـــو لاح في الأحـــلام يشـــتعلُ
فكيـــف تغـــرب عـــني صـــورةٌ حُفـــرتْ
خلـــف الجفـــون، بمـــاء العـــين تغتســـلُ
تلـــك الأماســـي إذا طافـــتْ بـــذاكرتي
تعيـــدني للصِـــبا الأغلـــى فأمتثـــل
دعوتهـــا مـــن رمـــاد الغيـــب فانتفضـــت
عجلـــى تـــردُّ النِـــدا شـــوقاً وتتصـــلُ
فَمـــنْ يعيـــد لنـــا مغنـــى طفولتنـــا..
وكـــلُّ لفتـــةِ طـــرف شـــدني طَلَـــلُ
فلـــيس يطفؤهـــا نـــأيٌ ولا زمـــنٌ
ولا النوائـــبُ إلاّ يـــوم أرتحـــلُ
إلفـــين عشـــنا ومـــرَّ العمـــر في دَعَـــةٍ
لا الهـــمُّ يطـــرقُ لـــيْ بابـــاً ولا الوجـــلُ
يشـــيل عـــني همـــومي كلمـــا كثُـــرتْ
فأســـتريح ويســـري في دمـــي الأمـــلُ
وكـــان في كـــل أمـــرٍ متعِـــبٍ ســـنداً
إذا أناخـــتْ بنـــا الأحـــداثُ والحيـــل



يصـــدُّها، وهـــو في ســـاح الـــوغى أســـدُ
لكنـــه بـــين عشّـــاق الرِضـــى حَمَـــلُ
والآن جـــاء القضـــاء الحـــق فـــانفطرتْ
كـــلُّ القلـــوب، فرفقـــاً أيهـــا الأجـــلُ

* * *

عبـــدَ الكـــريمِ أبـــا بسَّـــام هـــل تركـــتْ
لـــيَ الرزايـــا فـــؤاداً بـــات يَحْتَمِـــلُ
مازالـــت الـــذكرياتُ البـــيضُ تقـــتلني
إذا ألمَّـــتْ لمَـــنْ غـــابوا ومَـــنْ رحلـــوا
كـــم حمَّلـــوني مـــن الشـــكوى لواعجَهـــا
وكـــم تمنيـــتُ أن يبقـــوا فمـــا قبلـــوا
عاشـــوا كرامـــاً وأســـياداً وقـــد ركبـــوا
مـــتنَ الخلـــود إلى جناتـــه انتقلـــوا
شـــدّوا الرحيـــل عـــن الـــدنيا وقســـوتها
فقـــرّوا عينـــاً وعيشـــاً حيثمـــا نزلـــوا
وخلّفـــوني علـــى بُعـــدٍ أذوب جـــوىً
ويخنـــق الآهَ مـــني اليُـــتمُ والثّكـــلُ
فكـــلُّ مـــا ظـــلَّ عنـــدي بعـــد مـــا رحلـــوا
روحٌ تغـــصُّ وقلـــبٌ والـــهٌ ثمـــل






واليـــومَ أنـــتَ ولم تــرحمْ أخــاً كبُــرتْ

آلامُـــه، ومشـــتْ في جســـمه العِلـــلُ

يتَّمْتَـــهُ وهـــو في الســـبعينَ يَعبُرُهـــا

نحـــو المصير بجـــرحٍ لـــيس ينـــدملُ

مـــا قيمـــةُ العمـــر بعـــد الـــراحلين إذا

مـــن إخـــوتي ســـتةٌ غـــابوا ومـــا قَفَلـــوا

فـــلا تلمـــني إذا ناديـــتُ مبـــتهلاً

يـــا ربُّ خـــذني لمَـــنْ عـــن نـــاظري أفلـــوا

*   *   *

عبـــد الكـــريم أبـــا بسَّـــام هـــل بقيـــتْ

في الصـــدر جارحـــةٌ مـــا مسَّـــها الشـــلل

مَـــنْ كـــان يحســـب أن العمـــر منتصـــر

علـــى الشـــباب ويُطـــوى ذلـــك الجبـــل

حتـــى رمـــاك بســـهمٍ مـــن فواجعِـــه

مَـــنْ في يديـــه المنايـــا. وانتهـــى الجـــدل

لكـــنْ وحُبُّـــكَ مازالـــتْ هنـــا قـــيمٌ

تحيـــا طـــويلاً. وذكـــرى طعمُهـــا عســـل

ولـــو طـــواك الـــرَّدى قلبـــاً وباصـــرةً

تبقـــى علـــى شـــفة الأجيـــال تنتقـــل



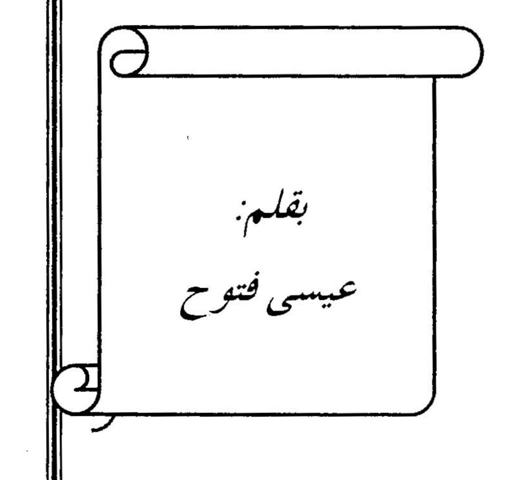




قـد كنـتَ مـن طينـةٍ قلَّـتْ نظائرُهـا
فيهـا الرضـى والوفـا والصـدقُ والعمـلُ
حققـتَ نصـراً ومجـداً لـيس يمسـحه
كـرُّ السنين. ويحيـا الاسـم والمُثُـلُ
تظلُّ شمسُ /الحمى/ في الأفق مشرقةً
فـالله حارسُـها والحـبُّ والأزل
في كـلِّ خافيـةٍ منهـا وباديـةٍ
قلـبٌ بكـل معـاني الخـير مكتمـلُ
ولـو رحلـتَ وضجت في النـوى مهـجٌ
تبقـى بمـا زرعـتْ كفـاك تحتفـلُ
فقـد تركـتَ علـى سـاحاتها نفـراً
مـن الأسـود إذا مـا قـرروا فعلـوا
هـم البُـزاة وصـدرُ الشـمسِ ملعبُهم
كمـا رسمـتَ وهـا هـم للعـلا وصـلوا
حمَّلـتهم كـلَّ مـا يرضـي الإلـه تقـىً
وأن يكونـوا كرامـاً كلمـا سُـئلوا
فـنم قريـراً بأحضـان الخلـود فقـد
أدَّوا الأمانـة إخلاصـاً لمـا حملـوا
وإنَّ أرضَ /الحمـى/ تبقـى محصـنةً
بالحـب مهمـا كواهـا الحـادث الجلـلُ




الوراقة و الوراقون عند العرب



من المتفق عليه أن العرب المسلمين كانوا من أسبق الشعوب إلى التدوين والكتابة والاهتمام بالوراقة وصناعة الكتاب، على الرغم من أنه حين ظهر الإسلام، لم يكن يكتب بالعربية إلاّ نفر قليلون جلهم من الصحابة، كعلي بن أبي طالب، وعمر بن الخطاب، وطلحة، وعثمان بن عفان، وأبي سفيان، وولديه معاوية ويزيد.. فقد كتب علي وعثمان وزيد بن ثابت، وعبد الله بن الأرقم آيات التنزيل، والكتب التي خاطب بها النبي محمد الملوك يدعوهم إلى الإسلام.

كانت الأقلام تصنع من القصب، أما الحبر فيصنع من مسحوق الفحم أو من الهباب مذاباً في سائل لزج كالصمغ ونحوه، وأما القرطاس فأقدم ما كتب فيه العرب من أول الإسلام، الرقاق وهي الجلود، كما كتبوا على الأقمشة، وأشهرها نسيج مصري كانوا يسمونه (القباطي)، وإذا تعذر كتبوا على الخشب أو العظام، أو على قطع الخزف، أو على الأحجار وجريد النخل..

ولما فتحو مصر اتخذوا البردي، فكان أكثر مكاتبات الأمويين على البردي والقباطي، وفي العهد العباسي اتخذوا الكاغد الذي أخذوه عن الصينيين، لأن الصينيين برعوا في صناعة الورق منذ أقدم العصور، فلما فتح المسلمون سمرقند أخذوها عنهم، وعن العرب المسلمين أخذ العالم صناعة الورق، وقد استخدمت أوروبا الكاغد الشامي وكانت تسميه CHARTA DAMASCENA ومن المعروف أن صداعة الورق انتقلت إلى أوروبا

عن طريق الأندلس، إذ كان للعرب المسلمين مصانع كثيرة في شاطبة وبلنسية وطليطلة.

انقضى القرن الهجري الأول والعرب يتناقلون العلم بالتلقين، ويعتمدون على الحفظ. ولم يدونوا غير القرآن الكريم، أما التفسير والحديث والأشعار والأخبار والأمثال، فقد كانوا يتناقلونها شفاهاً، ويحفظونها في الصدور، فلما انتشر الإسلام، واتسعت الأمصار، وتفرقت الصحابة فيها، وحدثت الفتن، واختلفت الآراء، وكثرت الفتاوى، اضطروا إلى تدوين الحديث والفقه وعلوم القرآن مستندين في ذلك إلى حديث رواه أنس بن مالك يقول "قيدوا العلم بالكتابة" و "العلم صيد والكتابة قيد".

اقتصرت الكتابة في بادئ الأمر على القرآن الكريم والرسائل التي ترسل إلى القواد، وتدوين الحسابات في دفاتر الدولة، أما سائر العلوم فكانت تتناقل بالسماع، وتحفظ في الصدور، ولذلك تأخر تأليف الكتب حتى مطلع القرن الثاني الهجري، ويقال إن أول من صنف الكتب في الإسلام، هو وهب بن منبه صاحب القصص والأخبار المتوفى سنة ١١٦ هـ، وابن جريج البصري المتوفى سنة ١٥٥هـ، ولما ازداد الإقبال على التدوين، واشتدت الحاجة إلى النسخ، وازدهرت صناعة الورق، وتنافس الناس في اقتناء الكتب، وتباهوا في تجليدها وزخرفتها، وتفننوا وتأنقوا في إخراجها وتذهيبها، ولا سيما في القرن الرابع الهجري، برز عدد من النساخ الذين أتقنوا صناعة الكتابة وتجويد الخط، كالإمام أحمد بن حنبل، والقاضي أبي سعيد السيرافي، وابن النديم صاحب كتاب (الفهرست)، ويحيى بن عدي، وأبي حيان التوحيدي، والسريّ الرفاء، وابن القوطية، وابن مقلة الخطاط، والحجاج بن مطر، ومالك بن دينار، وأبي عيسى الوراق، وياقوت الحموي صاحب معجم الأدباء ومعجم البلدان، والسراج الوراق وغيرهم..

فقد كان هؤلاء الناسخون جنوداً مجهولين في عالم الوراقة، نسخوا آلاف الكتب التي عمرت مكتبات العالم الإسلامي في قرطبة وبغداد والقاهرة ودمشق وبخارى وفارس واستنبول.. قبل اختراع الطباعة.

كان الوراقون يعملون مجاناً في فجر الإسلام، ينسخون بلا أجر، لأن معظمهم من الصحابة، أما في عهد بني أمية فصار الوراقون يتقاضون أجوراً على عملهم، كمالك بن دينار، والخطاط قطبة الذي اخترع أربعة أنواع من الخطوط اشتق بعضها من بعض، إلاّ أن العصر الأموي كان يمثل بداية الانطلاقة لندرة الورق، وغلاء ثمنه، وصعوبة الحصول عليه، ولا سيما القرطاس المصنوع من البردي، حتى إن الخليفة عمر بن عبد العزيز أمر بالاقتصاد في استعمال الورق، وجعل الكتابة بخط صغير.

ولما جاء العصر العباسي، انتعشت حرفة الوراقة، وراجت بسبب توافر الورق ورخص ثمنه، فكثرت دكاكين الوراقين، وصار لهم سوق خاصة، حتى إن الجاحظ كان يكتري أحد هذه الدكاكين لينام فيه ليلاً بقصد القراءة والمطالعة.

كانت الوراقة مهنة سامية يحترفها أدباء وعلماء وفلاسفة ومحدثون، وكل من له رغبة في الكتب، أو في مجالسة ذوي الثقافة، وكانت سوق الوراقين منتدى فكرياً يقصده العلماء لمجالسة بعضهم، والتناقش مع زملائهم الوراقين في الشؤون المختلفة، كما كانت تحتوي على مزاد علني تباع فيه الكتب، وكثيراً ما يتنافس الناس على شراء الكتاب الواحد، ويدفعون ثمنه أضعافاً مضاعفة دونما حاجة إليه، كتلك القصة التي رواها الحضرمي عن مزاد كتاب عرض في سوق قرطبة، فراح أحد الأشخاص يزيد في ثمنه إلى حد غير معقول، فدنا منه الحضرمي وقال له: "أعز الله سيدنا الفقيه. إن كان لك غرض في هذا الكتاب تركته لك، فقد بلغت الزيادة بيننا فوق حده! فقال لست بفقيه، ولا أدري ما في الكتاب، ولكنني أقمت خزانة كتب واحتفلت فيها لأتجمل بين أعيان البلد، وبقي فيها موضع يسع هذا الكتاب، فلما رأيته حسن الخط، جيد التجليد استحسنته، ولم أبال بما أزيد فيه، والحمد لله على ما أنعم به من الرزق فهو كثير، فأحرجني وحملني على أن قلت له: نعم لا يكون الرزق كثيراً إلاّ عند مثلك، يعطى الجوز من ليس عنده أسنان، وأنا الذي أعلم ما في هذا الكتاب، وأطلب الانتفاع به، يكون الرزق عندي قليلاً، وتحول قلة ما بيدي بيني وبينه".

ولم تكن هذه السوق من أجل شراء الكتب والاطلاع عليها فحسب، بل للاجتماع والتشاور والتحدث في شؤون الكتب، سواء كانوا يريدون شراءها أم لا، وقد ذكر أبو حيان التوحيدي في كتابه (المقابسات) طائفة من هذه المناقشات والجلسات التي كان يعقدها جماعة من العلماء في سوق الوراقين بباب الطاق في بغداد، ويشترك فيها العلماء والأطباء والفلاسفة والمؤرخون والشعراء والأدباء والوراقون أيضاً.

تقول المستشرقة الألمانية زيغريد هونكه في كتابها (شمس العرب تسطع على الغرب) لقد فتحت اللهفة على اقتناء الكتب الباب أمام مئات الألوف من البشر لكسب عيشهم، فأصبح النساخ والخطاطون مهرة في فنهم، ووظفت كل مكتبة أو متجر للكتب عدداً ممن أرادوا كسب رزقهم عن هذا الطريق.. وهكذا انتشر منتجو الورق في سمرقند وبغداد ودمشق وطرابلس، وفلسطين والأندلس، وتبعهم المجلدون، يعدون غلافات رائعة للكتب.. فكم من رزم الأوراق، ولترات الحبر استهلكتها الأيدي الدائبة على الكتابة كل عام، وكم من الجلود أمدتهم بها صغار الماعز قد استنفدت لهذا الغرض، وهكذا أصبحت تجارة الكتب تماماً كالصيدلة، هدية قدمها العرب للبشرية".

كانت سوق الكتب عند بوابة البصرة في بغداد تضم أكثر من مئة متجر، يرتادها المتعلمون من كل أنحاء العالم الإسلامي، حيث يفتش الفيلسوف والشاعر والفلكي عمّا صدر حديثاً من الكتب وينقب الطبيب والمؤرّخ وجامع الكتب عن النسخ القديمة، ثم يتناقش الجميع ويتبادلون المعرفة.

كانت الوراقة مهنة العلماء والمثقفين الذين لم يتصلوا بعمل يدر عليهم دخلاً جيداً، أو الذين تعففوا في طلب الرزق عن الشبهات، وهي بالإجمال مهنة شاقة مضنية تنهك صاحبها وتورثه السأم والملل، ولذلك سماها أبو حيان التوحيدي – وهو أحد الأدباء الذين ابتلوا بها زمناً طويلاً – (حرفة الشؤم)، وقال للصاحب بن عباد الذي طلب منه أن ينسخ له رسائله البالغة ثلاثين مجلداً "أينسخ إنسان ثلاثين مجلداً، ويرجو بعد ذلك أن يمتعه الله ببصره، أو ينفعه ببدنه؟". ولو كان أبو حيان يريد الوراقة لظل يعمل بها في بغداد، ولما قصد الصاحب بن عبّاد في الري.

لم يقتصر عمل الوراقين على النسخ فقط، بل كانوا يساعدون العلماء في أبحاثهم، وينسخون لهم الكتب والمراجع اللازمة، ولذلك كان لكل عالم وراق يلازمه، فقد كان للواقدي وراق هو محمد بن سعد صاحب كتاب (الطبقات الكبرى)، وكان للمبرد وراقان معاً، ولا يكتفي الوراق بنسخ الكتب، بل يصحح النقل، ويدقق في الأسانيد ويضبطها.

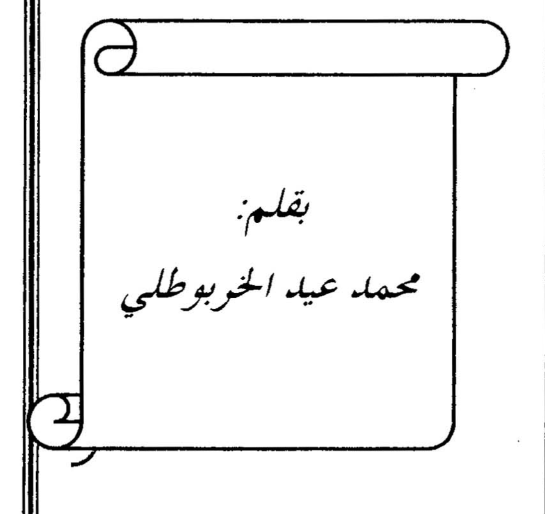
بعد أن ينتهي الوراقون من عملية النسخ والتصحيح والضبط، يلجؤون إلى زخرفة الكتب، ورسم الصور فيها، وقد احتل القرآن الكريم الدرجة الأولى من حيث الدقة والإتقان والزخرفة، وقد ذكر ابن النديم في كتابه الفهرست عدداً من الذين كانوا يزخرفون المصاحف، وينقشون الإطارات في صفحاتها باللون الذهبي، وكانت المصاحف التي كتبها فنانون مشهورون تلقى العناية الفائقة على أعلى المستويات، وكانت العناية بزخرفة الكتب جزءاً من النهضة الفنية عند العرب المسلمين، فابن البواب الخطاط والرسام والوراق والفنان المشهور الذي كان يعمل في ديوان بهاء الدولة البويهي، كان في البداية مزوقاً يرسم النقوش في الدور، ثم صار يرسمها في الكتب.

كان الكتاب الجيد ينادى عليه في مزاد علني، كما تباع التحف والمخطوطات النادرة واللوحات القيمة اليوم، فيحرص مقتنيه على الاحتفاظ به، ولما كثر الورق عمد الوراقون إلى افتتاح حوانيت لهم لبيع مخطوطاتهم إلى الناس بعد تجليدها.

لكن مهنة الوراقة بدأت تتأخر بتأخر الحضارة العربية الإسلامية، فصارت أمهات الكتب تنسخ بخطوط رديئة، ويكثر فيها الفساد والتصحيف، لكنها لم تتوقف كلياً، فقد ظلت القسطنطينية طوال العهد العثماني مركزاً هاماً لنسخ المخطوطات والمتاجرة بها.

ولما دخلت الطباعة إلى القسطنطينية لأول مرة عام ١٧٢٨م/ ١١٤١هـ ظلت الوراقة تسير معها جنباً إلى جنب لقلة شيوع المطابع وبدائيتها، واستمر ذلك إلى ما قبل خمسين عاماً تقريباً، حيث تقدمت الطباعة وتطورت، ووفرت الكثير من الجهد والوقت، وحلت محل الوراقين، ولكن لا تزال للكتب المخطوطة قيمتها الفنية والتاريخية، يقبل عليها الهواة، ويبذلون من أجلها أغلى الأثمان، في الشرق والغرب.

مكتبة الحرم المكي



مقدمة:

لما كانت مكتبة الحرم المكي الشريف إحدى أهم المكتبات في العالم حيث تقع بمكة المكرمة قبلة المسلمين ومهوى أفئدتهم، وقد ضمت بين جنباتها نتاج أفكار جهابذة العلم، فقد كثر السؤال عن تاريخها الذي يعود إلى سنة (١٦٠هـ)، لأن ما كتب عنها لا يفي بالغرض ولا يشفي الغليل مع قدم نشأتها، فهي مازالت من القرن الثاني للهجرة إلى يومنا هذا شامخة البنيان.

تقدم خدماتها لقاصديها وطلابها دون استثناء.

المكتبة في اللغة:

وأفضل من كتب عن مكتبة الحرم محمد بن عبد الله باجودة في كتابه (نثر القلم في تاريخ مكتبة الحرم) من المتأخرين وقد نشرت هذا الكتاب مكتبة الملك فهد الوطنية (غفر الله له ورحمه) سنة ١٤٢٣هـ، بالإضافة إلى ما كتبه المتقدمون في كتبهم عن مكتبات الحرمين على شكل نتف متفرقة.

ولا بد من تعريف المكتبة، فهي عند أهل اللغة مكان بيع الكتب ومكانٍ جمعها وحفظها، هذا التعريف لم يكن موجوداً عند أهل اللغة القدماء، لأن المكتبات كانت تعرف في عصورهم بخزائن الكتب ودور الحكمة وكتبخانة.

لكن مدلول مكتبة تطور مع توالي الزمن تطوراً كبيراً بعد أن كانت لا تعني أكثر من مستودع للكتب يشرف عليه عالم أو أديب أو متعلم يتميز بحبه للكتب وحرصه الشديد دون الاهتمام بتداولها إلاَّ في أضيق الحدود، وتحت رقابة شديدة خشية ضياعها وإتلافها..

تاريخ المكتبات:

المباني كالبشر تبدأ من تراب وتعود إلى تراب وبين الترابين قصة الإنسانية وحضارتها، والمكتبات من المظاهر الحضارية التي اتصفت بها الأمم والحضارات، وهي الوعاء الذي تصهر فيه معطيات الثقافة إلى فعل حضاري يتجاوز الزمان والمكان وحدود المعمار المألوف، فهي همزة الوصل بين ما خلفته الأجيال السابقة والأجيال اللاحقة استناداً إلى قوله تعالى: ﴿وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون﴾. وقوله تعالى: ﴿علم الإنسان ما لم يعلم﴾ واستجابة لهذا التوجه الرباني انتشرت المكتبات بأنواعها، وأدرك العرب منذ القديم أهمية المكتبات وعظم أثرها في نشر الوعي المعرفي والفكري، فكانت ومازالت تشكل اللبنات الأساسية في صروح العلم والمعرفة، يلجأ إليها الطلاب والباحثون على اختلاف أجناسهم ومستوياتهم العلمية للنهل من معينها.

وامتداداً لهذه الغايات السامية أنشئت المكتبات لتكون مشكاة المصابيح يستضاء بها باعتبارها الشريان الذي يمد الحياة بالتطور..

من هذا المنطلق فإنه يقاس رقي أمة من الأمم بمدى اهتمامها بالمكتبات وما تلقاه من عناية ورعاية، وخير دليل على نهضة الأمة ضخامة المكتبات التي لديها، والأمة الفقيرة حقاً هي التي لا تملك مكتبات تفيد وتستفيد منها، والمتتبع للتاريخ القديم للمكتبات يجد الحضارتين البابلية والآشورية قد أوليتا المكتبات عناية كبيرة، وقد وجدت لديهما أنواع من المكتبات العامة والخاصة والمتخصصة ومكتبات القصور والمعابد، وكذلك كان الأمر في مصر وإيبلا وأوغاريت والصين القديمة.

المكتبات في مكة والمدينة:

كانت مكة المكرمة والمدينة المنورة من أعظم بلاد الإسلام قاطبة ازدحاماً بالكتب وبدور الكتب، وذلك لقدسيتهما، وهذا ما جعل الملوك والأمراء والنجباء والأغنياء يتقربون إلى الله بما يهدونه لها، فأرسلوا إليهما أنفس الكتب والنادر منها.

وكانت مكة المكرمة غاصة بالكتب، إلاَّ أن عوادي الزمن المتوالية أدت إلى خلو دور الكتب من بعض النفائس، سواء كانت تلك العوادي طبيعية كالسيول أم من فعل فاعل كالإهمال والسرقة مما أدى إلى تبدد غالب ما كان فيها من أمهات الكتب، وهكذا بقي الحال إلى أن قيض الله من جمع شتات ما بقي من هذه الكتب من أطراف الحرم ومن الأربطة والمساجد وجعلها في مكان واحد قرب بئر زمزم، وأطلق عليه اسم (المكتبة المجيدية) نسبة إلى السلطان العثماني عبد المجيد.

نشأة مكتبة الحرم المكي الشريف:

أورد السباعي في تاريخ لمكة (أن سدنة بيت الله الحرام كتبوا إلى المهدي يذكرون له أن حجر المقام قد انثلم، فأمر بتضبيبه بالفضة وأنشأ قبتين بجوار بئر زمزم من جهتها الشرقية، إحداهما على السقاية، والأخرى على بيت المحفوظات التي كانت تحفظ المصاحف وكان ذلك عام ١٦٠هـ).

نستنتج من هذا النص أنه كانت هناك أمكنة مخصصة لحفظ المصحف الشريف بخلاف ما هو عليه الحال الآن من انتشار المصاحف في جميع أرجاء المسجد الحرام.

وذكر باسلامة (أنه كانت بالحرم المكي قبة تسمى قبة بيت المحفوظات كانت تحفظ بها

المصاحف والربعات، منها مصحف عثمان بن عفان).

ويقول مؤلف نثر القلم (والظاهر أن بيت المحفوظات في ذلك العهد كان يضم إلى جانب المصاحف كتباً أخرى والغالب أنها في علم الحديث وعلوم الدين المختلفة لأن المسجد الحرام كان يعج بحركة علمية رائجة).

وقد أكد وجود هذه القبة كثير من المؤرخين القريبين من ذلك العصر، ويؤكد وجود خزائن الكتب بالمسجد الحرام ما ذكره المؤرخون من أخبار سيل عام ٤١٧هـ حيث وصل الماء إلى خزائن الكتب وأتلف منها الشيء الكثير، وكان قد شيد الأمير شرف الدين مكتبة ومدرسة في الحرم بالغرب من باب السلام، وكان بالمكتبة كتباً متنوعة لا تحصى).

كما كان علماء كل مذهب يوقفون كتب مذهبهم بمكتبة الحرم، وقد أكد على ذلك المؤرخون.

وهكذا استمر تدفق الكتب إلى الحرم، وكان ينال منها السيل مما أدى إلى خسارة فادحة بذهاب هذا التراب العظيم، عند ذلك أمر السلطان عبد المجيد بنقل المخطوطات إلى إحدى المدارس المطلة على الحرم المكي وبقيت دار للكتب (كتب خانه) إلى أن أزيلت في توسعه المسجد الحرام، وقد أرسل لها السلطان (٣٥٢٢ كتاباً) يوجد بعضها اليوم وعليها ختمة السلطاني، وكان ذلك سنة ١٢٦٢هـ، كما أمر بوضع ساعات فلكية في المسجد الحرام.

وفي عهد والي مكة عثمان نوري باشا نقلت الكتب إلى دار الحديث في المدرسة السليمانية، ولذلك سميت المكتبة السليمانية، بعد أن جهزت بالرفوف والخزائن لتكون مكتبة للحرم المكي، ودار الحديث بناية بديعة الصنع يرجع تاريخ بنائها إلى مئات السنين وقد عرفت بقصر أحمد باشا، وكان فيها ما يقرب من عشرة آلاف مجلد مطبوع ومخطوط باللغة العربية والتركية والفارسية، وكان موضعها إلى يمين الداخل إلى الحرم من باب دريبة.

والكتب التي كانت بمكة كانت بمثابة نواة لتكوين مكتبة الحرم حيث أوقف كثير من الحكام والأمراء والعلماء والأدباء والأغنياء الكتب عليها، كما فعل ذلك كثير من الحجاج والمعتمرين.

مراحل انتقال المكتبة:

أجمع مؤرخو مكة المكرمة أن السيول التي داهمت الحرم المكي على مر العصور كانت أعظم خطر هدد الكتب والمصاحف التي كانت محفوظة بالحرم، وذلك بسبب انخفاض أرض الحرم، وكذلك الإهمال كان سبباً في إتلاف هذه الكنوز، وبعد أن دخل السيل سنة ١٠٥٥هـ فأتلف ما في قبة الفراشين من كتب، وبعد سيل سنة ١٢٧٨هـ الذي أغرق الحرم مع ما فيه من كتب، أصدر الأمر السلطاني في ١٩ شوال سنة ١٢٨٧هـ بنقل المكتبة من داخل الحرم إلى مكان آخر، ولكن لم ينفذ إلاّ في سنة ١٢٩٩هـ عندما أمر والي مكة عثمان نوري باشا بنقل الكتب إلى دار الحديث (قصر أحمد باشا) في باب الدريبة، وبقيت هناك حوالي ثمانية عقود، وكانت تتكون من غرفتين إحداهما للمطالعة لا تتسع لأكثر من ثلاثين شخصاً وضمت وقتها ٩٠٠٠ كتاب ومخطوط.

وفي عهد الملك سعود بن عبد العزيز وسع الحرم سنة ١٣٧٦هـ فانتقلت المكتبة سنة ١٣٨٢هـ من باب الدريبة إلى عمائر

الأشراف القديمة، وهو مكان غير صالح للكتب، فهي عبارة عن قبو كبير، وعندما اطلع وزير الأوقاف آنذاك حسين عرب على حقيقة ذلك، أمر بسرعة البحث عن مكان آخر، حيث اشترى عدة محلات بعمارة مشروع الحرم أمام الصفا بجوار دار الأرقم بن أبي الأرقم وأعدت لتكون مقراً لمكتبة الحرم المكي، وأبدلت الخزائن المقفلة بخزائن مفتوحة، وسمح لرواد المكتبة بأخذ ما يشاؤون من الكتب بأنفسهم دون وسيط، كما أدخل إلى المكتبة كل وسائل الراحة والحفظ.

وفي سنة ١٣٩٤هـ تم نقل المكتبة إلى حي التيسير بعمارة الشيخ عبد الله بن سليمان في عهد الملك خالد بن عبد العزيز رحمه الله، وفي عهد خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز رحمه الله تم نقل المكتبة إلى مبنى خاص مقابل باب الملك عبد العزيز سنة ١٤٠٦هـ وقد جهزت بما تجهز به أكبر المكتبات العالمية من أثاث وأجهزة وتنظيم وفهرسة، إلى أن صارت أحد المعالم الحضارية المجاورة لبيت الله الحرام.

وفي سنة ١٤١٣هـ أزيل المبنى لصالح توسعة الحرم، فانتقلت إلى شارع المنصور في المبنى الذي كانت تشغله رابطة العالم الإسلامي، ولا تزال به حتى يومنا هذا.

مصادر محتويات مكتبة الحرم المكي:

لا شك أن نواة المكتبة الأولى كانت من المصاحف والربعات التي حفظت في القبة وأماكن أخرى في الحرم المكي وسلمت من عوادي الدهر والإهمال، ومن المدارس والأربطة المجاورة للحرم، والهدايا من السلاطين والحكام والموسرين والإهداءات من الحجاج والمعتمرين والمؤلفين وكذلك الشراء.

لكن المكتبة كبرت بمكتبات كثير من العلماء الذين أوصوا بمكتباتهم إليها، لتكون مرجعاً لكل قاصد علم.

ومن هؤلاء العلماء على سبيل المثال لا الحصر:

١- الشيخ عبد الستار الدهلوي توفي ١٣٥٥ هـ وكانت مكتبته نادرة وقد أسسها أحد علماء الهند الذين قدموا إلى مكة، وقد عرفت بكتبها النادرة، وكانت تضم ١٨٥٠ كتاباً بين مطبوع مخطوط، وكان معظمها بخط يده.

٢- مكتبة الشيخ علي الكيلاني توفي ١٣٦٧هـ ، وكان فيها ٩٣٨ مجلداً مطبوعاً وبعض المخطوطات.

٣- مكتبة الشيخ عبد الوهاب الدهلوي توفي ١٣٨١ هـ، وكانت مكتبة نفيسة وقد بلغت محتوياتها ما بين مخطوط ومطبوع ٥٠٩٤ كتاباً، ومن مخطوطاتها النادرة (شرح ألفية العراقي للسخاوي في مجلدين بخط يده، والسيرة الشامية، وسبل الهدى والرشاد في ٨ مجلدات).

٤- مكتبة عبد الرحمن المعلمي توفي ١٣٨٦هـ، وكان فيه ٦٤٢ كتاباً مطبوعاً، و ١٧ مجلداً صور لمخطوطات نادرة.

٥- مكتبة عمر الذيبي توفي ١٣٩٤ هـ الذي كان يختار لنفسه الكتب النفيسة وقد أوصى بها لمكتبة الحرم المكي وبلغت ١٨٨٨ كتاباً.

٦- مكتبة عبد المهيمن أبو السمح توفي ١٣٩٩ هـ وبلغت ٧٠٠ كتاب مطبوع منها طبعات نادرة.

٧- مكتبة إسماعيل الحريري توفي ١٤٠٥ هـ وضمت ٢٩٦٧ كتاباً بعضها نادر.

٨- مكتبة الأديب محمد أحمد فقي توفي ١٤٠٧ هـ وضمت أكثر من ٢٠٠٠ كتاب.

٩- مكتبة د. محمد رزيق التي أهداها لمكتبة الحرم المكي وبلغت ١٥٧٤ كتاباً.

١٠- مكتبة عبد الرحيم بن عبد الله صديق توفي ١٤٠٨ هـ وبلغت ١٦٧٠ كتاباً منها كتب مخطوطة بيد مؤلفيها.

١١- مكتبة الشيخ الشنقيطي وقد بلغت أكثر من ٢٠٠٠ كتاب.

١٢- مكتبة سليمان بن عبيد توفي ١٤١٦ هـ وبلغت أكثر من ٢٠٠٠ كتاب.

١٣- الشيخ علي الهندي توفي ١٤١٩ هـ أوقف مكتبة لمكتبة الحرم المكي وقد بلغت ٢٩٦٠ كتاباً بالإضافة إلى عدد جيد من نوادر المخطوطات.

بالإضافة إلى عدد كبير من المكتبات الخاصة الأخرى التي أوقفها أصحابها لصالح مكتبة الحرم المكي لتكون في متناول روادها.

عهود ازدهار المكتبة:

يعتبر عام ١٣٥٧هـ بداية ازدهار المكتبة، وذلك عندما أطلق عليها الملك عبد العزيز رحمه الله اسم (مكتبة الحرم المكي الشريف)، وأمر بتشكيل لجنة من علماء مكة لدراسة أوضاعها وتنظيمها بما يتفق ومكانتها، وبعد ما كانت تعتمد على الإهداءات تم رصد مبلغ لشراء الكتب المهمة، وعندما ضمت إلى وزارة الأوقاف تم رفع كتاب إلى الملك فيصل رحمه الله عام ١٣٧٠هـ، وقد اقترح فيه السير بأعمال المكتبة على غرار النظام المعمول به بدار الكتب المصرية وقد وافق على ذلك

وتم تطوير خدمات المكتبة بشكل مكثف لتخدم كل الناس، من رجال ونساء وأطفال وذوي حاجات خاصة، ووفرت لهم كل وسائل الراحة.

وقد تناوب على إدارتها خيرة العلماء المخلصين الغيورين على العلم والكتاب، وكان أولهم الشيخ محمود شكري كتبخانة توفي ١٣٠٤ هـ، ويعتبر أول حافظ كتب (أمين مكتبة) بعد جمع شتاتها في عهد السلطان عبد المجيد خان، وقد ترك من تصنيفه حوالي عشر مخطوطات، ثم الشيخ أحمد دحلان توفي ١٣٧١ هـ، وآخر عالم تولى إدارتها د. محمد بن عبد الله باجودة، وقد بدأ بإدارتها سنة ١٤٢١ ومازال قائماً على رأس عمله حتى اليوم.

من نفائس المكتبة:

ضمت المكتبة مجموعة قيمة من المخطوطات النادرة، فبعضها يعود إلى القرن الخامس الهجري، كما ضمت المطبوعات الحجرية التي تعود إلى ١٥٠ عاماً مضت، بالإضافة للرسائل الجامعية والدوريات العربية التي يعود تاريخها إلى عام ١٢٩٧ هـ.

ففيها من المخطوطات العربية الأصلية ٤٧٤٩ مخطوطاً، و ٣٥٨ مخطوطاً بغير العربية، وفيها أكثر من ٥٣٠٠ ميكرو فيلم، وحوالي ٧٠ ألف شريط تضم دروساً لمشايخ الحرم، وتضم أكثر من ٤٠٠٠ مجلد من الصحف، أما الكتب فبلغت أكثر من مائة ألف عنوان، وبلغت المكتبات الخاصة التي أهديت إليها أكثر من ٤٣ مكتبة.

ومن نوادر المخطوطات المحفوظة فيها:

- الغيلانيات للبزار توفي ٤٤٠ هـ. وهي ١١ جزءاً في مجلد كبير، وتعد من أقدم مخطوطات المكتبة، حيث يعود تاريخ نسخها إلى ٤٩٤ هـ، عليها ختم السلطان عبد المجيد.
- مسند الموطأ للغافقي توفي ٣٨١ هـ، وقد نسخ ٦٩٣ هـ.
- مجمع البحرين في زوائد المعجمين لابن الهيثمي توفي ٨٠٧ هـ، وقد نسخ ٨٥٧ هـ، وهي النسخة الوحيدة الكاملة في العالم.
- الروضة في القراءات السبع للحسن الموصلي المالكي توفي ٤٣٨ هـ، نسخت ٦٤٧ هـ، مختومة بختم السلطان عبد المجيد.
- التصريف لمن عجز عن التأليف في الطب لخلف بن عباس الزهراوي توفي ٤٢٧ هـ.

ومن الدوريات النادرة الموجودة في مكتبة الحرم المكي:

- بريد الحجاز السنة الأولى العدد الأول ١٣٤٣ هـ، ويوجد منها ١٣٤٥ عدداً، صورت على أفلام ميكرو فيلم.
- صوت الحجاز العدد الأول السنة الأولى ١٣٥٠ هـ، ويوجد منها ٥٩٢ عدداً مصورة على أفلام.
- المقتطف التي أنشأها يعقوب صروف وفارس نمر، والتي صدر عددها الأول في عام ١٨٧٦ م، ويوجد منها بمكتبة الحرم من أول عدد حتى الجزء الخامس من المجلد ١٣٠.
- مجلة المنار التي أنشأها محمد رشيد رضا، وصدر عددها الأول في عام ١٣١٥ هـ يوجد منها ١٧ مجلداً.
- مجلة المقتبس التي أصدرها محمد كرد علي في عام ١٩٠٦م، ويوجد منها ثمانية مجلدات، والمجلد الثامن يضم ٨٨٧ صفحة.

أخيراً:

تعد مكتبة الحرم المكي الشريف إحدى أقدم المكتبات الموجودة بالمملكة العربية السعودية والجزيرة العربية استناداً لما أوردته المصادر التاريخية، من أن تاريخ نشأتها يعود إلى القرن الثاني للهجرة وبالتحديد في عام ١٦٠ هـ في عهد الخليفة العباسي محمد المهدي بن أبي جعفر المنصور.

لقد ارتبطت في بداياتها بوجود المصاحف والكتب الدينية، وتطورت عبر العصور، كما تعرضت إلى كثير من الكوارث من سيول وغير ذلك، لكنها صمدت بفضل الله إلى أن صارت على ما هي عليه اليوم.

كذلك برعاية أناس عهدت إليهم فأفنوا زهرة شبابهم في خدمتها وخدمة العلم وطلابه، وبرعاية حكام غيورين ساعدوا في إنقاذها ونقلها من مكان إلى آخر عدة مرات إلى أن صارت بهذا الشكل الذي هي عليه اليوم.




اعترافات امرأة شتائية

شعر الدكتورة: سعاد الصباح

ما لجنوني أبداً حدود..
ولا لعقلي أبداً حُدود..
ولا حماقاتي على كثرتها
تحدُّها حدود..
يا رجُلاً يُغضبُهُ تطرُّفي
من الذي يغضبُ من تطرُّفِ الورود؟
هذا أنا.. من يوم أن خُلِقْتْ
أنوثتي ساحِقةٌ..
عواطفي حارقَةٌ..
شواطئي تضربُها البروقُ والرّعود..
هذا أنا من يوم أن عشِقتْ..
أشرِعَتي مفتوحةٌ
ضفائري مفتوحةٌ
أوردتي مفتوحةٌ
وأنهُري تهزأُ بالسُّدودْ
فلا تقف مُرتبكاً..
وذاهلاً..
أما إعصاري.. فإنّي امرأةٌ..
ليس لما تُريده حُدود..
هذا أنا.. يا سيِّدي
هذا أنا..
بغير أصباغٍ، ولا طِلاءْ
حُبّي شتائِيٌّ..







ولا أشعرُ أنّي امرأةٌ
إذا انتهى الشتاء..
حُبّي جنونِيٌّ..
ولا أشعر أنّي امرأةٌ
إذا لم أحطمْ قِشرةَ الأشياءْ..
حُبِّي انتحاريٌّ..
فلو رمَيْتني في البحر، ذات ليلةٍ
وجَدْتَني..
أسيرُ فوقَ الماءْ..
حُبِّي طفوليٌّ..
فلو لمسْتَ خَصْري مرةً
حَلّقْتُ بين الأرضِ والسّماءْ..
فلا تعاقِبْني على طفولتي
فإنّني من دونِها،
فراشةٌ من خَشبٍ..
وزهرةٌ من ورقٍ..
ولوحَةٌ بيضا..
يا أيُّها الجالسُ..
سُلطاناً على أوراقهِ
يا أيّها السُّلطان..
أكتُبْ على إسوارتي..
أكتُبْ على دشداشتي..
أكتُبْ على الأجفانْ..
أكتُب على الرّياحِ..
والأمواجِ..
والأمطارِ..







والخُلجانْ..
أمنيتي..
بأن أكونَ فتحةً..
أو ضمَّةً..
أو كَسْرةً..
أو زهرةً صغيرةً
في ذلك البستان..
لو كان بالإمكان، يا صديقي
لو كان بالإمكان..
يا رجُلاً حرَّرَني..
من سُلطةِ الزّمانِ والمكانْ..
لو كنتَ تدري، كم أنا مبهورةٌ..
وكم أنا سعيدةٌ..
وكم أنا أشعرُ بالأمانْ
يُثيرُني..
في بيتك الأليفِ، كلُّ شيءْ..
البُسُطُ الحمراءُ..
والأزهارُ..
واللوحاتُ..
والتّبغُ الذي يرفضُ أن يفارقَ الحيطان..
تُثيرُني..
حتى الكراسي عندما تحسُّ بالأمان..
يا أيُّها الغارِقُ في مقعدهِ الجلدِيِّ..
هل تبصرني.؟
في زحمةِ الأوراق..
يا أيُّها المزروعُ كالوردةِ في الأعماق







أغارُ من يديك.. يا صديقي
حينَ على الأوراقِ تعزِفانْ..
أغارُ من رائحةِ الحبرِ..
ومن رائحةِ الصَّمتِ..
ومن رائحة الأحطابِ..
والنّيرانْ..
أغار من رسائل الحبِّ..
التي تكتبها..
وقطةِ البيتِ التي تحضُنُها..
وقبضةِ الفنجان..
يا سيِّدي..
الجالسَ في نهاية الدُّنيا..
ألا تذكرني..؟
أنا التي شكّلتني
من رغوةِ البحرِ..
ومن حجارة الياقوتِ..
والمرجان..
أنا التي..
كنتَ تناديني، إذا أردتني:
يا قمرَ الزَّمان..
يا مَن على يديه قد تشكّلَت أنوثتي
يا أيّها المسؤولُ عن هندسةِ الخصرِ..
وعن تموُّجِ الشَّعْرِ..
وعن مواسم المُشمُشِ،
والرُّمانْ..
يا رجُلاً عوّضني بحبِّهِ..
عن أجملِ الأوطان..




قصة

طاولة الحزن

بقلم:
علي محمود المجنوني
السعودية

لا يؤجل الفرح لأكثر من مرة، وإلا انقلب حزناً أكيداً. اليوم هو يوم زواجها بعد أن أجّل في المرة الأولى بسبب شخص وظرف لم يكونا داخل دوائر الحسبان ولا قريباً منها. استبشر خيراً بذلك التأجيل، لكنه غدا اليوم أكثر إيماناً بأن للأماني حدوداً لن يبلغها ولو لعق السماء ببطن رجله.

حينما نهض من سريره كانت الشمس قد تجاوزت نافذته ثم أطبقت جفنيها ونامت في دعة البحر منذ دقائق. بدا البيت ككرتون ورقي خال إلا منه. ود لو يصرخ ليسمع صدى صرخته توقظ ذرات الكرتون النائمة في لون الطين ورائحته. كان قد أوكل مهمة إيصال أهله إلى صديقه وابن الجيران فأمسى شبه عاطل.

راغ إلى كرت الدعوة الملقى فوق الأريكة اليتيمة في غرفة نومه ليتفحصه. يسكنان في حي واحد، ولهذا وصل كرت الدعوة إلى يده وعينيه فأصاب قلبه ورمى به في غياهب الحزن. قلّب دعوة الحزن بين أصابعه فتأكد أن هذا المساء مساء اليوم المشهود، ولما امتلأت عيناه باليقين رمى بالكرت دون أن ينظر على أي أرض وقع. خرج من دفء جدران الكرتون لا يلوي على شيء.

مضى إلى المقهى الأقرب إلى قلبه والأبعد إلى بيته. في سماء الشارع لا شيء يدل على النشاط. القمر يشوب وجهه لون النعاس المائل للبرتقالي والنجوم لم ترفع عنها -بعد- لحف القيلولة بعمر يوم كامل. اعتاد أن يلتقيها على طاولة قصية من ذلك المقهى. يجعل وجهه نحو الشارع بينما تقابله جاعلة الشارع خلف ظهرها. يقبع المقهى في آخر الشارع المتعرج الذي يضيق حيناً ويتسع آخر. الموسيقى التي تولد من كبد المقهى تفصل ما بينهما وبين الشارع بينما وجهها القمري يعزله عن العالم بأسره.

* * *

كان أول ما فعله عندما اختار الطاولة ذاتها أن حدج باب المقهى العريض نسبياً بنظرة أكثر

من عابرة. كان ابن عم لها أصابته لوثة في عقله دائم الافتراش للأرض حذاء باب المقهى. يمضي وقته في الكتابة بأصابعه في الهواء والتمتمة بأحرف مبعثرة سرعان ما تحتفل بخروجها من فم المعتوه وجوفه. لكن تلك المساحة خالية الآن من المعتوه ومن كلماته وأحرفه.

بقايا ذكريات تخشب قدميه المتسمرتين حول جذع المائدة الذي لم يكن طويلا. كانت ركبتاه تصطكان بركبتيها فتلتقي أعينهما الضاحكة وتبارك هذا التماس. أما الليلة فركبتاه تتحركان في تيه وأظافره لا تتيح لشفتيه وأسنانه الانطباق طرفة عين.

النادل النشيط يحفظ رغباتهما عن ظهر قلب، عندما اقترب من شروده صافحه بسؤال في ثوب تقرير:

- اثنين قهوة، واحد سكر خفيف وواحد سكر زيادة؟

- لا! واحد قهوة.

- .....؟

- سكر خفيف.

حتى في الرغبات والأذواق يختلفان. يقفز هذا الاكتشاف المتأخر جداً إلى رأسه فيعرض أمام ناظره لحظات لقاءاتهما المتكررة في المقهى. لم تكن أحاديثهما تختلف في لقاء عن آخر.

- أنا العقرب المنهك، وأنت ساعتي.

قال لها ذات ليلة وعيناه تَنشدان الهدى في مهامه عينيها.

على الحائط شنقت ساعة كانت العقارب المنهكة تدور في فضائها بلا كلل. ما يعزيه ويخفف عنه هو إيمانه بأن هذا قدرها وعليها أن تتزود من الرضا في دورانها السرمدي. وهو في أمس الحاجة إلى زاوية تضم قلقه وضياعه، نظر إلى الطاولة أسفل من عينيه فوجدها دائرية هي الأخرى.

كان يستغل لحظة تمد يدها نحو قهوتِها، فيلتقط كفها من أصابعها ويشم ظهر الكف العائم في فضاء الطاولة. لم يكن يعلم أن الوردة التي يشم ستكون من نصيب غيره الذي سيلتقطها ويعطر حياته بعبقها الذي يجلب السكر اللذيذ.

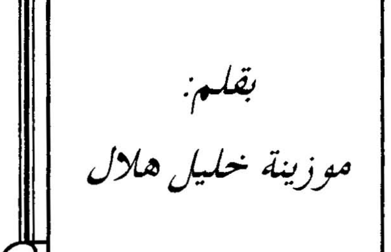
أُجّل زواجها بسبب موت ذاك المعتوه ابن عمها قبل حوالي الشهر. لأنه معتوه -كما روى عدد من الذين شهدوا الحادثة- ارتطم بسيارة مسرعة عشية الزواج ففغرت الأفواه وتحركت السواعد لدفنه وإقامة مراسم عزائه. لم يتقابلا بعد تأجيل الزواج أكثر من بضع دقائق امتلأت بالصمت العارم.

تطلع إلى باب المقهى العريض مرة أخرى فتمنى لو يبعث ابن عمها من قبره ويصطدم بسيارة ثانية فيؤجل الفرح مرة ثانية. لكن العالم الخارجي يحشر نفسه في رأسه على نحو مزعج، والضوضاء كأنما تساق من فم الشارع لتستقر أخيراً في أذنه حيث يجلس على الطاولة القصوى من المقهى. ذلك لأن الوجه القمري لم يسجل حضوره على الطاولة. ونظرات النادل في ذرعه للمقهى لا تفتأ تستدر مكنون الرجل من الذكريات العذبة ومن الكمد الطافي على محياه. قد تكون انكسرت ساعته، لكن عليه -وهو العقرب- أن يواصل الدوران في صمت.

قطع صمته ثلة من الصبيان يتراكضون على وقع المزامير والطبول. أدرك أنه موكب الفرح والحزن. بمرور الموكب تبدى له الشارع في شفافية تامة. اختفت الجلبة للحظة وعمّ سكون غريب. عندما تجاوز موكب الفرح باب المقهى كان موكب من الحزن يلج من الباب ويزف إليه. انخفضت دقات قلبه وشعر كما لو أنه يهوى به من مكان سحيق. ود لو يحظى بمقدار من الأمان فبسط ذراعيه على مائدة الحزن أمامه، وبصوت واهن أعاد خطا النادل إليه:

- واحد سكر زيادة يا معلّم!

تاريخ مدينة القدس


بقلم:
موزينة خليل هلال

هي أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين بعد مكة والمدينة، مسرح النبوات وزهرة المدائن، ومحط أنظار البشر منذ أقدم العصور.

الموقع

تقع مدينة القدس في وسط فلسطين تقريباً إلى الشرق من البحر المتوسط على سلسلة جبال ذات سفوح تميل إلى الغرب وإلى الشرق. وترتفع عن سطح البحر المتوسط نحو ٧٥٠م، وعن سطح البحر الميت نحو ١١٥٠م، وتقع على خط طول ٣٥ درجة و١٣ دقيقة شرقاً، وخط عرض ٣١ درجة و٥٢ دقيقة شمالاً.

تبعد المدينة مسافة ٥٢ كم عن البحر المتوسط في خط مستقيم و ٢٢كم عن البحر الميت و٢٥٠كم عن البحر الأحمر، وتبعد عن عمان ٨٨كم، وعن بيروت ٣٨٨كم، وعن دمشق ٢٩٠كم.

التأسيس

إن أقدم جذر تاريخي في بناء القدس يعود إلى اسم بانيها وهو إيلياء بن ارم بن سام بن نوح عليه السلام – إيلياء أحد أسماء القدس – وقيل إن ملكي صادق أحد ملوك اليبوسيين – وهم أشهر قبائل الكنعانيين – أول من اختط وبنى مدينة القدس وذلك سنة ٣٠٠٠ ق.م، والتي سميت بـ يبوس) وقد عرف ملكي صادق بالتقوى وحب السلام حتى أطلق عليه

(ملك السلام) ومن هنا جاء اسم مدينة سالم أو شالم أو (أور شالم) بمعنى شالم يؤسس، أو مدينة سالم وبالتالي فإن أورشليم كانت اسماً معروفاً وموجوداً قبل أن يغتصب الإسرائيليون هذه المدينة من أيدي أصحابها اليبوسيين وسماها الإسرائيليون أيضاً (صهيون) نسبة لجبل في فلسطين، وقد غلب على المدينة اسم (القدس) الذي هو اسم من أسماء الله الحسنى، وسميت كذلك بـ (بيت المقدس) الذي هو بيت الله.

التوسعة والإعمار

١- في عهد النبي سليمان عليه السلام اتسعت القدس فبنى فيها الدور وشيّد القصور وأصبحت عاصمة للدولة، امتدت من الفرات إلى تخوم مصر، ويعتبر هيكل سليمان أهم، وأشهر بناء أثري ضخم، شيده الكنعانيون فيها ليكون معبداً تابعاً للقصر.

٢- قام الخليفة الثاني عمر بن الخطاب بعدة إصلاحات فيها.

٣- سنة ٧٢هـ بنى عبد الملك بن مروان قبة الصخرة والمسجد الأقصى، وكان غرضه أن يحول إليها أفواج الحجاج من مكة التي استقر فيها منافسه عبد الله بن الزبير إلى القدس.

٤- سنة ٤٢٥هـ شرع الخليفة الفاطمي السابع علي أبو الحسن في بناء سور لمدينة القدس بعد بناء سور الرملة، وفي العصر الفاطمي بني أول مستشفى عظيم في القدس من الأوقاف الطائلة.

٥- سنة ٦٥١هـ/ ١٢٥٣م وفي زمن المماليك غدت القدس مركزاً من أهم المراكز العلمية في العالم الإسلامي.

٦- سنة ١٥٤٢م جدد السلطان سليمان القانوني السور الحالي الذي يحيط بالمدينة القديمة والذي يبلغ طوله ٤٢٠٠م وارتفاعه ٤٠ قدماً.

المعالم

كانت أرض مدينة القدس في قديم الزمان صحراء تحيط بها من جهاتها الثلاث الشرقية والجنوبية الغربية الأودية، أما جهاتها الشمالية والشمالية الغربية فكانت مكشوفة وتحيط بها كذلك الجبال التي أقيمت عليها المدينة، وهي جبل موريا (ومعناه المختار) القائم عليه المسجد الأقصى وقبة الصخرة، ويرتفع نحو ٧٧٠م، وجبل أكر حيث توجد كنيسة القيامة وجبل نبريتا بالقرب من باب الساهرة، وجبل صهيون الذي يعرف بجبل داود في الجنوب الغربي من القدس القديمة. وقد قدرت مساحة المدينة بـ ١٩٣١كم، وكان يحيط بها سور منيع على شكل مربع يبلغ ارتفاعه ٤٠ قدماً وعليه ٣٤ برجاً منتظماً ولهذا السور سبعة أبواب وهي:

١- باب الخليل.
٢- باب الجديد.
٣- باب العامود.
٤- باب الساهرة.
٥- باب المغاربة.
٦- باب الأسباط.

٧- باب النبي داود عليه السلام.

الأودية التي تحيط بالقدس

١- وادي جهنم، واسمه القديم (قدرون) ويسميه العرب (وادي سلوان).

٢- وادي الربابة، واسمه القديم (هنوم).

٣- الوادي أو (الواد): وقد يسمى (تيروبيون) معناه (صانعو الجبن).

الجبال المطلة على القدس

١- جبل المكبر: يقع في جنوب القدس وتعلو قمته ٧٩٥م عن سطح البحر وعلى جانب هذا الجبل يقوم قبر الشيخ أحمد أبي العباس الملقب بأبي ثور، وهو من المجاهدين الذين اشتركوا في فتح القدس مع صلاح الدين الأيوبي.

٢- جبل الطور أو جبل الزيتون: ويعلو ٨٢٦م عن سطح البحر ويقع شرقي البلدة المقدسة، وهو يكشف مدينة القدس، ويعتقد أن المسيح صعد من هذا الجبل إلى السماء.

٣- جبل المشارف: ويقع إلى الشمال من مدينة القدس، ويقال له أيضاً (جبل المشهد) وهو الذي أطلق عليه الغربيون اسم (جبل سكوبس) نسبة إلى قائد روماني.

٤- جبل النبي صمويل: يقع في شمال غربي القدس ويرتفع ٨٨٥م عن سطح البحر.

٥- تل العاصور: تحريف (بعل حاصور) بمعنى قرية البعل وترتفع ١٠١٦م عن سطح البحر، ويقع بين قريتي دير جرير وسلود، وهو الجبل الرابع في ارتفاعه في فلسطين.

ويصف مجير الدين الحنبلي القدس في نهاية القرن التاسع سنة ٩٠٠ هـ بقوله:

"مدينة عظيمة محكمة البناء بين جبال وأودية، وبعض بناء المدينة مرتفع على علو، وبعضه منخفض في واد وأغلب الأبنية التي في الأماكن العالية مشرفة على ما دونها من الأماكن المنخفضة وشوارع المدينة بعضها سهل وبعضها وعر، وفي أغلب الأماكن يوجد أسفلها أبنية قديمة، وقد بني فوقها بناء مستجد على بناء قديم، وهي كثيرة الآبار المعدة لخزن الماء، لأن ماءها يجمع من الأمطار".

أسواقها

سوق القطانين: المجاور لباب المسجد من جهة الغرب، وهو سوق في غاية الارتفاع والإتقان لم يوجد مثله في كثير من البلاد.

الأسواق الثلاثة: المجاورة بالقرب من باب المحراب المعروف بباب الخليل، وهو من بناء الروم، وأول هذه الأسواق سوق العطارين وهو الغربي في جهة الغرب وقد أوقفه صلاح الدين الأيوبي على مدرسته الصلاحية.

حاراتها

الحارات المشهورة في القدس هي:

- حارة المغاربة.
- حارة شرف.

- حارة العلم.
- حارة الحيادرة.
- حارة الصلتين.
- حارة الريشة.
- حارة بني الحارث.
- حارة الضوية.

القلعة

وهي حصن عظيم البناء بظاهر بيت المقدس من جهة الغرب، وكان قديماً يعرف بمحراب داود عليه السلام، وفي هذا الحصن برج عظيم البناء يسمى برج داود، وهو من البناء القديم السليماني، وكانت تدق فيه الطبلخانة في كل ليلة بين المغرب والعشاء على عادة القلاع بالبلاد.

عين سلوان

وهي بظاهر القدس الشريف من جهة القبلة بالوادي، يشرف عليها سور المسجد الجنوبي، وقد ورد في بعض الأخبار أهمية هذه العين ووصفها ومكانتها، وهي إحدى العيون الجارية التي ورد ذكرها في الكتاب العزيز: ((فيهما عينان تجريان)) [الرحمن ٥٠].

ابارها

بئر أيوب، وهي بالقرب من عين سلوان نسبة إلى سيدنا أيوب عليه السلام، ويقال إن الله تعالى قال لنبيه أيوب عليه السلام: ((اركض برجلك هذا مغتسلٌ باردٌ وشرابٌ)) [ص ٤٢].

مساجدها

١- المسجد الأقصى الشريف: والذي تقع في وسطه الصخرة الشريفة.
٢- جامع المغاربة، وهو يقع بظاهر المسجد الأقصى من جهة الغرب.
٣- جامع النبي داود عليه السلام.

مقابرها

١- قبر النبي موسى عليه السلام: الواقع شرقي بين المقدس.
٢- مدفن النبي داود عليه السلام: في الكنيسة المعروفة بالجسمانية شرق بيت المقدس في الوادي، وكذلك قبر زكريا وقبر يحيى عليهما السلام.
٣- قبر مريم عليها السلام: وهو في كنيسة الجسمانية، في داخل جبل طور خارج باب الأسباط.
٤- مقبرة الساهرة: وهي البقيع المعروف بالساهرة في ظاهر مدينة القدس من جهة الشمال وفيها يدفن موتى المسلمين ومعنى الساهرة أرض لا ينامون عليها ويسهرون.
٥- مقبرة باب الرحمة: وهي بجوار سور المسجد الأقصى.
٦- مقبرة الشهداء - مقبرة ماملا: وهي أكبر مقابر البلد تقع بظاهر القدس من جهة الغرب.

مدارسها

في المدينة مدارس ومعاهد علمية ودينية وخيرية عديدة منها:

مدارس حكومية: وهي دار المعلمين، دار المعلمات، المدرسة الرشيدية، المأمونية، البكرية، العمرية، الرصاصية، ومدرسة البقعة.. إلخ.

مدارس قديمة: وهنالك نحو ٧٠ مدرسة قديمة أهمها المدرسة النحوية، الناصرية، التذكرية، البلدية، الخاتونية، الأرغونية.. إلخ.

مكتباتها

هنالك ٣٤ اسماً لمكتبات مختلفة نذكر أقدمها:

١- مكتبة القديس المخلص: تأسست عام ١٥٥٨م.

٢- مكتبة الخليلي: تأسست عام ١٧٢٥م.

٣- مكتبة البطريركية الأرثوذكسية: تأسست عام ١٨٦٥م.

٤- مكتبة الجامعة العربية.

٥- المكتبة الخالدية: تأسست عام ١٩٠٠م.

٦- مكتبات خاصة تعود لبعض الأسر القديمة منها: المكتبة الفخرية، ومكتبة آل البدري، ومكتبة آل قطينة، ومكتبة آل الموقت.

متاحفها

١- المتحف الحكومي للآثار: أنشئ عام ١٩٢٧م.

٢- المتحف الإسلامي: أسسه المجلس الإسلامي الأعلى عام ١٣٤١هـ/ ١٩٢٣م.

أماكنها التاريخية الأخرى

كنيسة قمامة، القيام، المارستان أو الدباغة، حبس المسيح، الجسيمانية، طريق الآلام، الصلاحية، المتحف، جبل الزيتون.

قبابها

- قبة الصخرة.
- قبة السلسلة.
- قبة جبريل.
- قبة الرسول.
- قبة الرصاص.
- قبة المعراج.

من ذاكرة التاريخ

- سنة ٣٠٠٠ ق.م هاجر العموريون العرب إلى فلسطين.
- سنة ١٩٠٠ ق.م هاجر إبراهيم الخليل عليه السلام من أور إلى فلسطين.
- سنة ١٧٨٥ ق.م هجرة الهكسوس وفي هذه الفترة، هاجر آل يعقوب إلى مصر نحو سنة ١٧٤٠ ق.م.

- سنة ١٢٩٠ ق.م خروج موسى عليه السلام وجماعته من مصر إلى فلسطين.
- سنة ١٠٠٣ ق.م اتخذ داود عليه السلام أورشليم عاصمة له وخلفه ابنه سليمان عليه السلام.
- سنة ٧٢٢ ق.م سقوط إسرائيل على يد سرجون الثاني الآشوري.
- سنة ٥٨٦ ق.م سقوط يهوذا على يد نبوخذ نصر البابلي.
- سنة ٥٣٦ ق.م احتل كورش الأخميني بابل وسماحه لليهود بالنزوح إلى فلسطين.
- سنة ٥٣٨ ق.م احتل الأخمينيون فلسطين، وقام كورش بتجديد هيكل سليمان وبناء المدينة.
- سنة ٣٣٢ ق.م احتل الإسكندر المقدوني فلسطيّن، وحلت الفوضى في البلاد بعد وفاته عام ٣٢٢ ق.م.
- سنة ٦٢ ق.م احتل الرومان فلسطين.
- سنة ٣٧ ق.م نصب الرومان هيرودوس الأدومي ملكاً على الجليل والقدس، وظل يحكمها حتى سنة ٤ م وفي زمانه ولد النبي عيسى عليه السلام في بيت لحم.
- سنة ٧٠ م حدث شغب في مدينة القدس فحاصرها طيطوس الروماني وأحدث في المدينة النهب والحرق والقتل وأحرق المعبد الذي بناه هيرودوس.
- سنة ١٣٥ م أثار اليهود الشغب مرة أخرى إلاّ أن الإمبراطور الروماني هدريان قام بالتنكيل بهم ودمر المدينة وحرث موقعها وحول القدس إلى مدينة وثنية وسمح للمسيحيين أن يقيموا فيها على أن يكونوا من أصل اليهود وسمى المدينة (الياكا بيتو لينا) مشتقة من أسرة هدريان المدعوة إليا.
- سنة ٣٢٤ م أصبحت فلسطين تحت الاحتلال البيزنطي.
- سنة ٦١٤م احتل كسرى أبرويز فلسطين.
- في ليلة ٢٧ من شهر رجب قبل الهجرة النبوية بسنة أسرى الله برسوله صلى الله عليه وسلم من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى.
- في شعبان سنة ٢هـ صلّى الرسول صلى الله عليه وسلم أول صلاته باتجاه القدس ثم حوّلت القبلة إلى الكعبة المشرفة في هذا التاريخ.
- سنة ٧هـ/ ٦٢٨م استطاع الإمبراطور البيزنطي هرقل أن يطرد الفرس من القدس.
- سنة ٨هـ/ ٦٢٩م وقعت معركة مؤتة.
- سنة ٩هـ/ ٦٣٠م وقعت معركة تبوك.
- سنة ١٣هـ/ ٦٣٤م وقعت معركة أجنادين وانتصر المسلمون فيها على الروم.
- سنة ١٥هـ/ ٦٣٦م وقعت معركة اليرموك وانتصر المسلمون فيها.
- سنة ١٧هـ/ ٦٣٨م دخل عمر بن الخطاب القدس وصالح أهلها.

- سنة ٤٠هـ/ ٦٦١م أخذ معاوية بن أبي سفيان البيعة في القدس، واختار مدينة دمشق عاصمة لخلافته.

- سنة ٦٥هـ/ ٦٨٤م وقعت ثورة فلسطين بزعامة نائل الجذامي تأييداً لعبد الله بن الزبير.

- سنة ٧٢هـ/ ٦٩١م أخذ سليمان بن عبد الملك البيعة في القدس، وبنى في الرملة قصراً له.

- في الفترة بين سنة (١٦٣ - ٢١٨هـ) زار فلسطين المهدي العباسي ومن بعده المأمون العباسي.

- سنة ٢٦٤هـ ضم أحمد بن طولون فلسطين إلى دولته في مصر.

- سنة ٣٨٥هـ/ ٩٦٨م سيطر الفاطميون على فلسطين.

- سنة ٤١٧هـ وقعت معركة عسقلان وانتصار حلف الأمراء العرب على الفاطميين.

- سنة ٤٩٢هـ استيلاء الوزير الفاطمي الأفضل بن بدر الجمالي على القدس.

- سنة ٤٩٣هـ احتل الصليبيون القدس وارتكبوا مجازر دموية في ساحة المسجد الأقصى ورفعوا الصليب على الصخرة المقدسة.

- سنة ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م استرداد بيت المقدس من الصليبيين على يد صلاح الدين الأيوبي في أعقاب معركة حطين.

- سنة ٥٨٦هـ/ ١١٩٠م وقعت حملة ريشار قلب الأسد ملك إنكلترا وفيليب الثاني ملك فرنسا (الحملة الصليبية الثالثة) واستيلائه على فلسطين في معركة (أرسوف).

- سنة ٦٣٧هـ/ ١٢٣٩م استولى الأيوبيون على القدس.

- سنة ٦٥١هـ/ ١٢٥٣م استولى المماليك على فلسطين.

- سنة ٦٥٩هـ/ ١٢٦٠م وقعت معركة عين جالوت واندحار المغول.

- سنة ٦٩٠هـ/ ١٢٩١م أنهى السلطان الأشرف بن قلاوون مملكة بيت المقدس الصليبية.

- سنة ٩٢٢هـ استولى السلطان سليم العثماني على القدس.

- سنة ١٨٣١م سقطت القدس بأيدي إبراهيم باشا العثماني.

- سنة ١٨٥٤م أقيم أول حي يهودي يدعى (حي مونتفيوري) في القدس نسبة إلى رجل يهودي استطاع شراء أرض فلسطينية بمساعدة السلطان العثماني.

- سنة ١٩٢٠م وضعت فلسطين تحت الانتداب البريطاني من أجل إنشاء دولة اليهود فيها.

- سنة ١٩٤٨م اغتصبت فلسطين من قبل اليهود وطرد العرب الفلسطينيون منها.

- سنة ١٩٦٧م استكمل اليهود سيطرتهم على عموم فلسطين والقدس بعد نكسة حزيران، وعادوا يطلقون عليها اسم (أورشليم).

- سنة ١٩٨٠ م تم إعلان ضم القدس سياسياً إلى دولة الاحتلال البريطاني تحت شعار توحيد القدس.




خمرُ الجلالة..

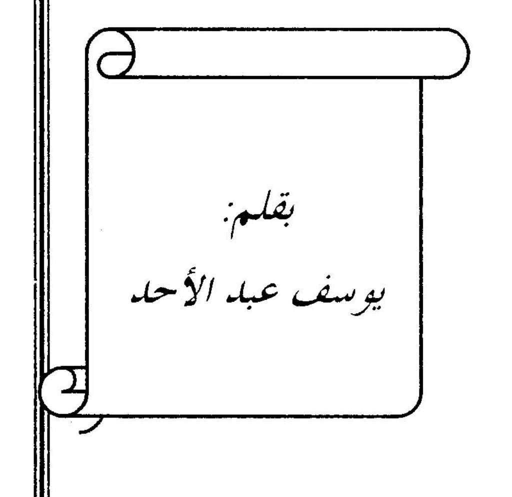
شعر: خالد سرحان الفهد

وجَعَلْتُ وجهَكِ للوصولِ دليلا
وجميلَ حُسْنِكِ حجَّةً وسبيلا
ولَّيْتُ وجهيَ شطرَ وجهكِ جاعلاً
قلبي لوجهِ اللهِ فيكِ خليلا
وعرفتُ ربيَ في هواكِ فصفَّقتْ
روحي ورتَّلْتُ الهوى ترتيلا
سبحانَ وجهِكِ كمْ بنيتُ لعشقهِ
قصراً وكمْ شئتُ اللقاءَ قتيلا!!
إني لأحلُمُ في وصالِكِ ساعةً
قَسَماً لأشبع رغبتي تقبيلا
كمْ همتُ في هذا الوجودِ محاولاً
عَبَثاً من العشقِ الردّى تقليلا
الحبُّ مِنْ خَمْرِ الجلالةِ فاسقِني
خمراً لأغدو في الدنانِ جليلا
هذي هضابُكِ ضُمِّخَتْ عطراً
إلهياً يُسَبِّحُ بكرةً وأصيلا
يا ربَّةَ الحُسْنِ المقدَّسِ أعطني
صبراً على نارِ الغرامِ جميلا
يا بنتَ إبراهيمَ حُبُّكِ قاتِلٌ
جيلٌ يَزُفُّ إلى غرامِكِ جيلا
اللهُ أكبرُ ما اتجهتُ وحيثُما
ولَّيْتُ كانَ مُوكَّلاً توكيلا




العلامة الشيخ سعيد الكرمي

١٨٥٢ - ١٩٣٥



أديب وشاعر وخطيب وأحد رجال النهضة العربية المعاصرة.

ولد في مدينة طولكرم بفلسطين عام ١٨٥٢ وتلقى دراسته الابتدائية فيها ثم تابع دراسته في جامع الأزهر الشريف في القاهرة وحضر دروس الشيخ جمال الدين الأفغاني (١٨٦٧ - ١٩٥٦) واتصل بالشيخ محمد عبده (١٨٤٩ - ١٩٠٥) وكان بينهما مراسلات.عاد إلى طولكرم بعد أن نال الشهادة العالية وعيّن مفتشاً للمعارف ثم أصبح مفتشاً لقضاء بني صعب في طولكرم.

إن أصل الأسرة من عرب اليمن الذين جاؤوا لفتح مصر مع عمرو بن العاص، ونزح جدّ والده إلى فلسطين واستقروا فيها.

عندما بدأت النهضة العربية في أواخر العهد العثماني تألفت بعض الجمعيات العربية الوطنية فدخل الشيخ سعيد في حزب اللامركزية وأصبح معتمد الحزب في قضاء بني صعب، وفي مطلع الحرب العالمية الأولى وزّعت منشورات في سورية تدعو إلى الانتفاض على الأتراك باسم حزب الثورة العربية فاعتبرت الحكومة العثمانية هذا الحزب فرعا لحزب اللامركزية وأخذت تطارد أعضاءه وألقت القبض على حافظ السعيد من يافا والشيخ سعيد الكرمي من طولكرم وسليم الأحمد عبد الهادي من جنين واعتقلت عدداً من أعضاء حزب اللامركزية وقدمتهم إلى المحكمة العرفية في عاليه.

جاء في كتاب (يقظة العرب) لجورج أنطونيوس (ص ٢٧٩ - ٢٨١) ما يلي:

"ألقي القبض على ثلاثة عشر شخصاً قدموا إلى محكمة عسكرية في عاليه بجبل لبنان وعذبوا وحوكموا وصدر الحكم وجاها بإعدامهم وصدر الحكم نفسه غيابياً على خمسة وأربعين آخرين الذين كانوا خارج البلاد ونصبت المشانق في الميدان الرئيسي في بيروت ونفّذ حكم الإعدام في أحد عشر شخصا في ٢١ آب ١٩١٥ وأجل تنفيذ الحكم بحق

اثنين هما حافظ السعيد من يافا والشيخ سعيد الكرمي لتقدمهما بالسن وأبدل حكم الإعدام بالسجن المؤبد. بقي الشيخ سعيد بالسجن مدة سنتين وسبعة أشهر ثم أفرج عنه في شباط ١٩١٨.

عاد سعيد بعد خروجه من السجن إلى طولكرم، ولما تشكلت الحكومة العربية في دمشق عيّن عضواً في الشعبة الأولى للترجمة والتأليف من ١ آذار ١٩١٩ إلى أيلول ١٩٢٠.

في ٢/ ٧/ ١٩١٩ افتتح المؤتمر السوري في النادي العربي بدمشق وحضره مندوبون ووقعوا اللائحة التي طالبوا فيها بوحدة سورية ووقع الشيخ سعيد اللائحة مندوباً عن قضاء بني صعب ثم عيّن عضواً في المجمع العلمي العربي بدمشق فنائباً للرئيس محمد كرد علي من ١/ ١٠/ ١٩٢٠ إلى نيسان ١٩٢٢.

كان المجمع العلمي العربي يعرف بالشعبة الأولى للترجمة والتأليف التي تأسست عندما تألفت الحكومة العربية في حزيران ١٩١٨ ثم أصبحت هذه الشعبة ديوان المعارف مهمتها النظر في أمور المعارف والتأليف وتأسيس دار آثار والاهتمام بدار الكتب الظاهرية، ثم تحوّل هذا الديوان بأعضائه الثمانية ورئيسه إلى مجمع علمي في ٨ حزيران سنة ١٩١٩.

والأعضاء الثمانية هم: أمين سويد – أنيس سلوم – سعيد الكرمي – عبد القادر المغربي – عيسى إسكندر المعلوف – متري قندلفت وعز الدين علم الدين، ثم انضم إليهم الشيخ طاهر الجزائري.

وفي عام ١٩٢١ أقيمت حفلة في سراي الحكومة تحت رعاية حقي العظم حاكم دمشق أنذاك وسلّم الشيخ سعيد وسام جوقة الشرف من رتبة فارس.

في ٦ أيّار ١٩٢٢ غادر الشيخ سعيد دمشق إلى عمّان/ الأردن حيث عيّن قاضياً للقضاة في الأردن ورئيس مجلس معارفها، وأصدر سمو الأمير عبد الله مرسوماً بتشكيل مجمع علمي في عمان وضمّ المجمع أعضاء عاملين وهم:

رضا توفيق – الشيخ مصطفى الغلاييني – رشيد بقدونس – محمد الشريقي – والشيخ سعيد الكرمي.

انتخب الشيخ سعيد رئيساً ووكيلاً للشؤون الشرعية، وانتخب أعضاء شرف وهم:

أحمد زكي باشا – محمد كرد علي – أحمد عباس الأزهري – الأب أنستاس ماري الكرملي – وإسعاف النشاشيبي، واصدر الأمير عبد الله أمراً بإصدار مجلة باسم مجلة المجمع العلمي.

وفي عام ١٩٢٤ أدى الشيخ سعيد فريضة الحج وقلده جلالة الملك الحسين بن علي ملك الحجاز وسام الاستقلال من الدرجة الأولى.

بقي الشيخ سعيد يشغل منصب قاضي القضاة ورئيس مجلس المعارف في الأردن حتى عام ١٩٢٦، ثم عاد إلى طولكرم إلى أن وافته المنية يوم الأحد في ١٠ آذار ١٩٣٥.

وانتدب الأمير عبد الله الأستاذ محمد الشريقي للاشتراك في جنازته، وألقى كلمة نوّه فيها بمآثره الكريمة.

كتب على ضريحه من الناحية الشمالية:

رمسٌ به حلّ التقى والهدى
والعلم والحلم وذكر حميد
نحن بنو الكرمي تاريخنا
في جنة الخلد قرار السعيد

وكتب في الناحية الجنوبية:

زر ضريحاً فقد ثوى فيه العلا
والتقى والمجد والعلم المفيد
من بني الكرمي أرّخه: ألا
يرضى مولاك إهنأ يا سعيد

ونشر الدكتور عدنان الخطيب (١٩١٤ - ١٩٩٥) مقالاً عن الشيخ سعيد في مجلة مجمع اللغة العربية في كانون الثاني ١٩٦٥ جاء فيه:

"كان الشيخ سعيد الكرمي من طلائع رجال النهضة العربية المعاصرة فقيهاً بالدين وباللغة العربية، عالماً بأسرارها، أديباً يحسن الخطابة والاستشهاد، ناثراً يحب السجع في كثير من الأحيان، يقرض الشعر وله قصائد يحاكي فيها شعراء الجاهلية بالجزالة والصور البدوية".

وكتب عنه العلامة عجاج نهويهض (١٨٩٧ - ١٩٨٢) مقالاً نشر في جريدة الأنوار بتاريخ ٣ آب ١٩١٦ جاء فيه تحت عنوان (حملة مشاعل النهضة الفكرية الوطنية في فلسطين):

"كان الكرمي دقيق البحث في موضوعه بالغ التحري، واسع الحفظ والرواية، وعلى الجملة من العلماء الذين إذا تم نضجهم وامتلأ حوضهم صدروا عن شيء كثير غزير، وهو مورد علم وباقة أدب إلى فطنة وألمعية في المجالس..".

وبعث أمين الريحاني (١٨٧٦ - ١٩٤٠) رسالة عن الباخرة (ادرياتيك) بتاريخ ٢٥ كانون الأول ١٩٢٢ إلى الشيخ سعيد الكرمي جاء فيها:

"وصل إليَّ في نيويورك كتابكم الكريم المنبئ أن المجمع العربي انتخبني عضو شرف فيه ووصلت إليَّ أعداد المجلة، طالعت يا سيدي مقالاتكم النفيسة ولُقَط الشيخ عبد القادر المغربي الجميلة ومحاضرات صديقي محمد كرد علي (١٨٧٦ - ١٩٥٣) المفيدة ومباحث الأب الكرملي (١٨٦٦ - ١٩٤٧) اللغوية التي طالما حمت حولها كالفراش حول النور. حفظكم الله وعزّز بمساعيكم الأمة وآدابها وأطال بقاءكم".

مقالاته المنشورة

* في مجلة المجمع العلمي العربي:

١- دار الكتب العربية في دمشق - أول كانون الثاني ١٩٢١.
٢- نفائس الآثار - ٢ شباط ١٩٢١.
٣- شذرات من ذهب في أخبار من ذهب - ٣ آذار ١٩٢١.
٤- اللغة والدخيل فيها - المجلد الأول ٥ أيار ١٩٢١.
٥- مخطوطات قاموس الأطباء - ٦ حزيران ١٩٢١.
٦- شرح مجلة الأحكام العدلية - ٧ تموز ١٩٢١.
٧- الإعلام بمعاني الأعلام - ١٠ تشرين الأول ١٩٢١ حلقة أولى.
٨- الإعلام بمعاني الأعلام - ١١ تشرين الثاني ١٩٢١ حلقة ثانية.
٩- الإعلام بمعاني الأعلام - ١٢ كانون الأول ١٠٢١ حلقة ثالثة.
١٠- الإعلام بمعاني الأعلام - ١١ كانون الثاني ١٩٢٢ حلقة رابعة.
١١- الإعلام بمعاني الأعلام (إربد) ١ آذار ١٩٢٢.
١٢- الإعلام بمعاني الأعلام (الأسود) ٤ نيسان ١٩٢٢.
١٣- بماذا يكون انتظام المجتمع الإنساني - ٨ آب ١٩٢٢.

* في الجرائد:

١- ذكرى الشيخ طاهر الجزائري - جريدة ألف باء - ٨/ ١/ ١٩٢١ - العدد ١١٠.
٢- بيان المجمع العلمي في حكومة الشرق العربي - جريدة الشرق العربي - عمان - ١٧ أيلول ١٩٢٣ - العدد ١٧.
٣- الخلافة الإسلامية - جريدة الشرق العربي - عمان - ١٤ نيسان ١٩٢٤ - العدد ٥٠.

- رسالة في التصوف: (واضح البرهان في الرد على أهل البهتان) - ١٨٧٥.
- محاضرة بعنوان: (بماذا يكون انتظام المجتمع الإنساني) ألقيت بتاريخ ٨/ ٧/ ١٩٢١ ونشرت في مجلة المجمع في ٨ آب ١٩٢٢.



الخمر و الغزل..

شعر: عصام شعبان

سـارَتْ بِجَـارِحِ رَمْشِـها المُتَكَسِّـرِ
فَأضـاءَ بَـدْرُ جَبِينِهـا المُتَنَـوِّرِ
واسْـتَقْبَلَتْ شَـمْسَ الأصـيلِ بِثَغْرِهـا
فَتَقـابَلا بَـدْراً بِبَـدْرٍ مُزْهِـرِ
هَلَّـتْ بِمَبْسَـمِها البَهِـيِّ وأشْـرَقَتْ
عَـنْ طَلْـعِ رُمَّـانٍ وَرَوضٍ مُزهِـرِ
مَـرَّتْ علـى المَـلإِ الكَـرِيمِ فـأَقْبَلوا
مُتَـرادِفِينَ إلـى الرَّحِيـقِ الأصْـفَرِ
في صَـدْرِها رَسَـمَ الهِـلالُ مَـدارَهُ
سَـلْ جَفْنَهـا يُنْبِيـكَ أيـنَ المُشْتَـرِي
رَنَـتْ خَلاخِلُـها بِباطِـنِ ساقِهـا
فاهتَـزَّ ناحِـلُ خَصْرِهـا المَتَزَنِّـرِ
وَتَطـوَّقَـتْ بِالجيـد سَمْـطَ قَلائِـدٍ
تَعْلـو علـى النَّهْدَيـنِ خَـوفَ تَحَـدُّرِ
مُقَـلٌ تُحاكـي في المَهـاةِ حَوارَهـا
وسَـوادُ فَـرْعٍ مِثْـلِ حَـظِّ العاثِـرِ
وَحَواجِـبٌ شِبْـهُ الهِـلالِ وكَـلْكَـلٍ
تُبْـدي بِـهِ تَـدْيَ الرَّحِيـقِ المُسكِـرِ







غَـرَّاءُ لا يُخْـفِ الحِجَـابُ بَريقَهـا
وكَـأنّـهـا ذاتُ الحِجَـابِ المُسْفِـرِ
ماهتـزّتِ الأغْـصانُ هَـزَّةَ خَصْرِهـا
إلاَّ تَساقَـطَ مِنْـهُ رَطْـبُ المُثْمِـرِ
وَتَميـسُ شِبـهَ الرِّئـمِ في فلَواتِهـا
سَلَبَـتْ قُـلوبَ العاشِقيـنَ بِمُسحِـرِ
تُـدني بِنَهْدَيهـا إلـى مَـنْ يَشْتَهـي
لَثْـمَ النُّهـودِ بِمُقْلَـةِ المتَبَصِّـرِ
مِـنْ أصْعَـبِ الأحـوالِ رُؤيَـة ظـامئٍ
رُمَّـان نَهْـدٍ فيـهِ طَعْـمُ السُّكَّـرِ
قَـدْ حَـرَّمَ اللّـهُ الخُتـومَ ومـا نـرَى
تَحْلـو الجِـنانُ بِغَيـرِ هـذا الكَوثَـرِ
يـا عـاذِلَـيَّ فَلْتَعْذُرانـي لا أرَى
تَبْدو الحِسانُ بِغَيْـرِ ذاكَ المَظهَـرِ
غُصْـنٌ تَمايَـلَ لاسِتـارَ يظُلُّـهُ
وَالسِّحْـرُ عِلّتـهُ افْتِتـانُ النّاظِـرِ
لَيـسَ الهَـوى وَصْـفُ الحَبيـبِ وإنَّـما
لَثْـمُ الثُّغـورِ وَمَـصُّ رِيـقِ العَنْبَـرِ
مـا كُنْـتُ أنْسـى حيـنَ أسْفَـرَ حُسْنُهـا
نـارٌ ومـاءُ تِلْـكَ صُنْعَـةُ قـادرِ
تُهْـدي لِشَمسِ الكَـونِ صـورَةَ وَجْهِهـا
وتُعيـرُ بَـدْرَ الحُسْـنِ تـاجَ المَرْمَـرِ
كَثُـرَ الحَدَيْـث بِوَصْفِهـا لـمّا بَـدَتْ
فالقَلْـبُ يَصْـدُقُ والنَّواظِـرُ تَفْتَـري




لقاء مع

الأستاذ الدكتور

غسان غنيم

بين النقد الأدبي

وثقافة الفكر

حاوره:

معين حمد العماطوري

أن النقد الأدبي الذي يتميز به الدكتور "غسان غنيم" يأخذ منحى خاص، لتميز بالموضوعية أولاً وخصوصية نقده تكمن على الثقافة المعرفية والمتابعة اليومية للساحة الثقافية، أي أنه يتابع ما توصلت إليه النظريات النقدية والمعرفية للأجناس الأدبية /قصة، رواية، شعر، مسرح/، وهذا ما أكسبه الاحترام والود لكثير من زملائه بالاختصاص نفسه، ولطلابه الذين يسعون للاستزادة من علمه وخبرته ومعرفته، فهو يتميز بالإيقاع الهادئ والسكون الجميل، تشعر بقيمة المعرفة لديه، وأسلوبه النقدي المنسجم مع قراءته اليومية تجعله، يسعى لتطوير ذاته دائماً والدراسة اليومية والتعامل مع الكلمة والحرف والمعنى بسهولة، ولهذا فهو جدير بالاحترام من زملائه وطلابه وأصدقائه.

جريدة الثقافة زارت "الأستاذ الدكتور.غسان غنيم" وأجرى معه الحوار التالي:

- كيف ينظر الدكتور الناقد غسان غنيم أستاذ الأدب الحديث والمعاصر في جامعة دمشق إلى واقع الأجناس الأدبية هذه الأيام؟

** زاد اهتمام النقاد بفكرة الأجناس الأدبية في القرن التاسع عشر عصرا ازدهار الرواية والقصة و القصة القصيرة والمسرحية.. ثم ترسخ هذا الاهتمام في القرن العشرين، وازداد التنظير لفكرة الفصل بين الأجناس الأدبية، ووضع الأسس والأركان التي يستند إليها كل جنس أدبي، بعد أن تمايز من الشعر الجنس الأكثر طغياناً في المراحل الأدبية السابقة. وقد انتقل ذلك كما هي العادة إلى حركة النقد العربية في النصف الثاني من القرن الماضي.. فظهرت الكثير من الكتب والمقالات والدراسات التي تتناول فكرة الأجناس الأدبية. تنظيراً ودراسة ومعالجة.

أما عن واقع الأجناس الأدبية اليوم، فأقول: ما تزال فكرة الأجناس قائمة على الرغم من تركيز الدراسات الغربية والعربية على قضية "النص" قصد إغفال جنسية الجنس، وللحق فان الكثير من الأجناس الأدبية والفنية تستفيد من آليات بعضها ومن تقنيات بعضها فالشعر استفاد من بعض الأجناس السردية، بل ظهر ما يسمى قصيدة النثر التي استفادت من تقنيات الأجناس النثرية، ولا تخفى الاستفادة الشعر من الرسم والموسيقى...كما استفادت الرواية..والسينما..والقصة القصيرة من لغة الشعر، ومن أساليب التقنيات السردية "ونووس- وإخلاصي"، فثمة تداخل حقيقي بين الأجناس الأدبية ولكن مع ذالك فثمة تمايز مازلت أصر عليه على المستوى النقدي، وان كنت لا أرفض النصوص غير الأجناسية إذا ما حققت سويه أدبية متميزة.

• هل الأجناس الأدبية تعيش حداثة حقيقية، وهل متسقة مع واقعنا العربي؟

** إن مشكلة الحداثة في الأجناس الأدبية وفي واقعنا العربي قد تعرّض لها كثير من الدارسين والنقاد وعلى رأسهم الشاعر الكبير" أدونيس"، فالمجتمع العربي عاش صدمة الحداثة مع نهايات القرن التاسع عشر ولما يفق منها، فما تزال البنى الاجتماعية العربية منقسمة إلى :

قسم"آ" يعيش حالة منغلقة، وإن لم يعد قادراً عليها في أجواء العولمة المعاصرة.

قسم"ب" انفتح على العالم الغربي وآمن أن الحداثة يمكن استيرادها باستيراد أدواتها- وهذا غير صحيح- ففعل الحداثة فعل يقوم على الاحتكاك بالآخر عبر عملية تفاعلية تقوم على الأخذ والعطاء كما يقوم على التجاوز الدائم للذات والآخر..

"ج" القسم الثالث التوفيقي.

فمن حطّم المقولات ورفض كل شيء فثار على أنماط التشكيل الشعرية ولجأ إلى قصيدة النثر وهؤلاء ممن لفظوا المجتمع أو لفظهم المجتمع، فعاشوا غير مؤمنين بالأشياء الثابتة- سواء كانت أشكالاً أم أفكاراً أم أنماط حياة..

• هل استطاع كتاب القصة القصيرة أن يخرجوا من قالب التأليف القصصي الكلاسيكي، وهل تحبذ أسلوب الكتابة الشاعرية إذا جاز التعبير في كتاب الأدب السردي، قصة قصيرة، رواية، مسرحية؟..

** في إطار القصة القصيرة العربية، تحولات كبيرة منذ بداية كتابتها في النصف الأول من القرن العشرين، ما جعل حصر الأشكال الناجمة عن تحولاتها أمراً صعباً. بحسب تجارب كتابه أو بحسب تغيّر زاوية الرؤية لديهم أو التركيز لدى كاتب وآخر، ولهذا الجنس لم يخرج عن إطار القولبة إلا في "القصر".. أما في الأدوات والأساليب واللغة، فثمة تبدلات دائمة، حتى وصل الشكل القصصي أخيراً إلى ما يدعى بالقصة القصيرة جداً، التي تعتمد على الومضة الذكية واللغة المكثفة القادرة على القول بما يفوق عدد كلمات القصة بكثير معتمدة على حساسية المتلقي وذكائه، وثقافته ومعرفته الاجتماعية والسياسية..فاللغة هي العنصر الأساسي الثابت في جميع الأشكال الأدبية، لأن طبيعة لغتها تقوم على التكثيف والإيحاء والرمز والصورة، وهذه من أخص خصائص لغة الشعر، ولكن هذه التقنية قد لا تتوافق مع الرواية والمسرحية فالرواية تعتمد على فلش اللغة لأنها من الأجناس الموضوعية التي تبتعد عن أدوات الشعر في غالبيتها.

• أنتقل إلى الشعر، هل تعتقد أن التلوين في الشعر واستخدام الإيقاعات المختلفة والأوزان المختلفة في القصيدة الواحدة يقرب هذا الشعر من الحداثة؟..

** أعتقد أن السؤال يتعلق بموسيقا الشعر الحديث وفيه أكثر من شق:

١-قضية استخدام إيقاعات مختلفة في القصيدة الواحدة وهذا شيء إيجابي بل واجب مع الملاحظة أن الإيقاع ليس بحر القصيدة أو تفعيلتها، وإن كانا يدخلان في إطار الإيقاع..فثمة إيقاعات متنوعة في القصيدة الواحدة، وهذا ما يعطيها حيويتها وتدفقها .

أما الحديث عن تنوع التفعيلات والأوزان داخل القصيدة الواحدة..فأرى أن هذه القضية تنبع من جهتين-آ- قد تأتى من عدم معرفة بعض الشعراء بالأوزان والتفعيلات والدوائر العروضية، -وهم ليسوا قلة- مما يجعلهم يخلطون ويتوهون في مسارب الموسيقا والعروض وإن واجهتهم يقولون هذه حداثة شعرية،أنا مع الحداثة في الرؤية والتجاوز الذي يجعل الشاعر في حالة تجدد دائم، فالحداثة لا تتعلق بالأوزان بل بموقف الشاعر من الكون والحياة.

● ننتقل إلى النقد، هل يعيش النقد العربي حالة صحية، وهل هناك نظرية نقدية عربية؟..

** لا بد لنا من ربط النقد بالفكر والحالة الفكرية العامة، لأن النقد فعالية تعد محصلة حقيقية لروح الأمة وواقعها الفكري والحضاري..فالنقد كالفكر لا بد له من الانتماء إلى مناخ عصره ونظامه، وأول ما يقوم عليه النقد نظرية فكرية أو رؤية فلسفية معينة إضافة إلى وجود معرفة وثقافة ووعي بتقاليد النصوص الأدبية وتقنياتها ثم تأتي الخبرة العملية في التعامل مع النصوص الإبداعية، باختصار إن النقد يحتاج إلى أدواته المعرفية بالإضافة إلى الاستعدادات الفردية بالشخصية للناقد ذاته.

نرى أن النقد العربي، قد لا يكون في أحسن أحواله ، وهذا لا يعني ضعفه وتأخره، بل على العكس، فعبر تاريخنا الأدبي، بما تجاوز نقادنا الحقيقيين حتى مطلع عصر النهضة المئة ممن امتلكوا رؤية نقدية ومعرفة موسوعية وقدرة على التعامل مع النصوص بأدوات نقدية معرفية حقيقية.

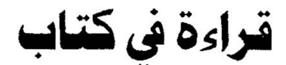
ولو نظرنا إلى إعداد النقاد منذ عصر النهضة لوجدنا أن النقد لدى العرب ما يزال بصحة جيدة، ويحاول أن يقوم بالدور المنوط به.

وهذا لا ينفي وجود نقاد حقيقيين أدركوا أهمية النقد وأهدافه وواجباته فامتلكوا النظرية النقدية، وعرفوا المناهج النقدية ومعطياتها، فالمشكلة ليست في عدم امتلاك المعرفة العلمية و الإمكانيات، بل في الرؤية الأحادية، ومحاولة ليّ أعناق النصوص الإبداعية، وعدم مراعاة التقاليد الأدبية وخصوصيتها القومية.

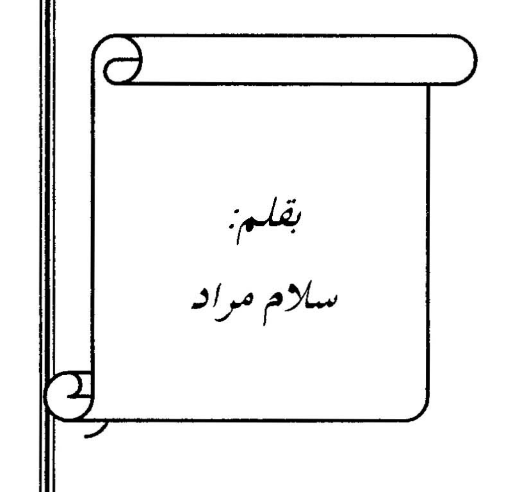
أما عن النظرية النقدية العربية، فهذه مجرد خرافة في هذا العصر العولمي، فالجميع قد أسهموا في وضع نظرية نقدية عالمية، إذن فمن عدم الدقة أن نتحدث عن نظرية نقدية عربية فالفكر بات إنسانياً، وعنه تصدر النظريات النقدية ولا يمكن لقومية مهما علت أن تدّعي امتلاك الفكر العالمي وبالتالي صيغ النقد وحركته بصبغتها القومية.

● د. غسان غنيم .. هل من كلمة أخيرة؟..

** أقول على الأمم، ألا تكون إلا ذاتها. وألا تخجل من هذه الذات وألا تشعر بالنقص تجاه أي من الأمم والشعوب الأخرى، فما هو قائم في أمة، كان في الأمم جميعاً لأن الجوهر الإنساني واحد.. والمراحل التي تمر بها الأمم متشابهة إلى حد بعيد، فليس ثمة ما يدعو إلى الخجل، بل على العكس على الأمم أن تقدم نفسها دون مواربة أو تجميل، وهي بهذا تستطيع أن تتجاوز أزماتها وذاتها المشروخة، نحو أفق أرقى وأجمل.



مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية



إن العلوم الاجتماعية وعلى الرغم من حرصها على الاستقلالية الإبيستيمولوجيا، ليست مستقلة تماماً عن السياقات الفكرية واللغوية التي تبني في مجراها ترسيماتها النظرية والمفهومية.

ومما تقدم فإنه يجب دراسة تطور مفهوم الثقافة عبر تطوره التاريخي، وهو تطور يرتبط بالتكون الاجتماعي للفكرة الحديثة عن الثقافة.

كما أن هذا التكون الاجتماعي يكشف أن هناك تباينات اجتماعية وقومية تكمن وراء الاختلافات الدلالية المستندة للتعريف الصائب الواجب إضفاؤه على الكلمة؛ لذلك كانت صراعات التعريف هي في الواقع صراعات اجتماعية.

تطور كلمة «الثقافة» في اللغة الفرنسية.

يعتبر القرن الثامن عشر فترة تكون معنى الكلمة الحديث.

قبل هذا التاريخ أي قبل عام ١٧٠٠م. قد ظهر معاني للثقافة في أواخر القرن الثالث عشر مأخوذ من اللغة اللاتينية ويعني العناية الموكولة للحقل والماشية. وذلك للإشارة إلى قسمة الأرض المحروثة (**cultura**).

في بداية القرن السادس عشر، كفت الكلمة عن الدلالة على حالة (حالة الشيء المحروث)، لتدل على فعل هو فلاحة الأرض، ولم يكون المعنى المجازي إلا في منتصف القرن السادس عشر، إذ بات ممكناً أن تشير كلمة «ثقافة» حينذاك، إلى تطوير كفاءةٍ، أي الاشتغال بانتمائها.

ويعتبر القرن الثامن عشر هو القرن الذي بدأت فيه كلمة «ثقافة» تفرض نفسها في معناها المجازي تم إدراجها في قاموس الأكاديمية الفرنسية (**Dictionnaire de Lácadémie Francaise**).

ظلت «الثقافة» في القرن الثامن عشر مستخدمةً في صيغة المفرد، وهو ما يعكس كونية الفلاسفة وإنسانيتهم، إذ الثقافة هي أخص ما يختص به الإنسان (نوعاً)، تجاوزا لكل التمايزات، شعوباً وطبقات.

انخرطت «الثقافة» في أيديولوجيا الأنوار، إذ اقترن اللفظ بأفكار التقدم والتطور والتربية والعقل التي احتلت مركز القلب من فكر العصر.

كانت «الثقافة» حينها، قريبة من كلمة أخرى جازت نجاحاً كبيراً (أكبر مما حازته كلمة «ثقافة») ضمن معجم القرن الثامن عشر الفرنسي وهي كلمة «حضارة».

الكلمتان تنتميان إلى ذات الحقل الدلالي وتعكسان التصورات الأساسية. قد يتم الجمع بينهما، أحياناً، ولكنهما ليستا مترادفتين تماما، إذ تستحضر «الثقافة» التقدم الفردي، وتستحضر «الحضارة» التقدم الجماعي.

انتصار مفهوم الثقافة

تطور مفهوم الثقافة في جميع البلدان، لكن لم يكن التطور متماثلا في جميع البلدان التي ازدهر فيها مفهوم الثقافة.

كانت الولايات المتحدة الأمريكية من أكثر الدول التي تطور فيها مفهوم الثقافة، فقد شهدت تطوراً ملحوظاً في جميع المناحي المعرفية، وبالتالي تكرست المفهوم العلمي للثقافة، مما جعل الكلمة تتبنى سريعاً بمعناها الأنتروبولوجي في الاختصاصات المجاورة، وخاصة في مجال علم النفس وعلم الاجتماع.

الولايات المتحدة الأمريكية تختلف عن أوروبا، من حيث السياقات، فالولايات المتحدة الأمريكية بلد مهاجرين ذوي أصول ثقافية مختلفة، ففي الولايات المتحدة تؤسس الهجرة الأمة، وبالتالي تتعرف الأمة على ذاتها باعتبارها متعددة الأجناس.

تتأسس الأسطورة القومية الأمريكية التي تكاد شرعية المواطنة فيها ترتبط بالهجرة، إذ الأمريكي مهاجراً وهو ابن مهاجر، على نموذج طريق للاندماج القومي يقبل بتكوين جماعات إثنية مخصوصة.

وغالباً ما يتزاوج انتماء الفرد إلى الأمة مع ارتباطه المعترف به بجماعة معينة، ولذلك نعت البعض هوية الأمريكيين بأنها هوية «همزات الوصل»، إذ يمكن أن يكون الواحد منهم بالفعل «الإيطالي – الأمريكي» أو «البولوني – الأمريكي» أو «اليهودي – الأمريكي» الخ...

وقد تمحض عن ذلك ما أمكن اعتباره «فدرالية ثقافية» تسمح، في الحيز العام، بالتعبير عن ثقافات مخصوصة لا تكون، مع ذلك، مجرد إعادة إنتاج خالصة أو بسيطة لثقافات المهاجرين الأصلية.

بل أقلمة لها وإعادة تأويل وقف المحيط الاجتماعي والقومي الجديد. وبرأي دوني كوش صاحب كتاب مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية أن الأسطورة الأمريكية تؤدي إلى اعتبار أن الهنود، وهم تعريفاً ليسوا مهاجرين، والسود، وهم من كانت هجرتهم قسرية، ليسوا أمريكيين تماماً.

ليفي شروس والتحليل البنيوي للثقافة (Lévi- strauss) لم تستقطب الأنثروبولوجيا الثقافية الأمريكية في فرنسا أتباعاً كثيرين، غير أن موضوع الكلية الثقافية أعيد تناوله، وإنْ من منظور جديد، من قبل كلود ليفي شروس الذي يعرف الثقافة كما يلي: «يمكن اعتبار كل ثقافة مجموع أنساق رمزية تتصدرها اللغة وقواعد التزاوج والعلاقات الاقتصادية والفن والعلم والدين. كل هذه الأنساق تهدف إلى التعبير عن بعض أوجه الحقيقة الطبيعية والحقيقة الاجتماعية، وأكثر من ذلك إلى التعبير عن العلاقات التي ترتبط بها كل من هاتين الحقيقتين بالثانية، وتلك التي ترتبط بها الأنساق الرمزية ذاتها بعضها ببعض».

كان ليفي شروس على معرفة جيدة بأعمال زملائه الأمريكيين، فقد أقام طويلا في

الولايات المتحدة إبان الحرب العالمية الثانية وما بعدها من عام ١٩٤١ إلى عام ١٩٤٧، وتشبع بأعمال الأنثروبولوجيا الثقافية، وخاصة ما كان منها لبّوا وكروبر وبينيدكت.

اقتبس ليفي شروس أربعة أفكار جوهرية من روث بينيدكت: أولها أن كل الثقافات تتحد بنموذج (pattern)، وثانيهما أن الأنماط الثقافية الممكنة معدودة العدد، وثالثها أن دراسة المجتمعات «البدائية» هي أفضل طريقة لتحديد الترابطات الممكنة بين العناصر الثقافية، وآخرها أنه يمكن دراسة هذه الترابطات في حد ذاتها، في استقلال عن الأفراد المنتمين إلى المجموعة التي تظل هذه الترابطات، بالنسبة إليها، لا واعية.

الثقافة والهوية

في الفترة الأخيرة ازداد استعمال مصطلح «الهويّة» مما أدى إلى أن يصفه بعض المحللين بأنه موضة، وبالتالي يجب معرفة ما تعنيه «موضة» الهويات.

فهناك إدانة دائمة لأزمة الثقافة ولأزمة الهوية، وبالتالي هل علينا أن نضع تطور هذه الإشكالية في إطار ضعف نموذج الدولة - الأمة وتوسع الاندماج السياسي ما فوق القومي وشكل ما من عولمة الاقتصاد؟.

وبالتالي يصل الأستاذ دوني كوش الباحث الاثنولوجي في جامعة السوربون «إن الموضة الهوياتية الحديثة هي استمرار لظاهرة تمجيد الاختلاف التي ظهرت خلال السبعينيات والتي كانت من فعل مدارات أيديولوجية كثيرة التنوع، لا بل متناقضة، سواء أكانت تمجد المجتمع المتعدد الثقافات، من ناحية، أم كانت على عكس ذلك، من باب «ليلزمْ كل منزله حتى يبقى هو هو ذاته»».

غير أنه، ولئن كان لمفهومي «ثقافة» و«هوية ثقافية» وإلى حد كبير مصير مترابط، فإنه لا يمكن المطابقة بينهما بلا قيد ولا شرط. يمكن للثقافة، عند الاقتضاء، أن تكون من دون وعي هوياتي، في حين يمكن للاستراتيجيات الهوياتية أن تعالج، بل أن تعدل ثقافة ما بحيث لا يبقى لها الشيء الكثير مما تشترك فيه مع ما كانت عليه قبل.

إن الثقافة تخضع، إلى حد كبير، لصيرورات لا واعية، أما الهوية فتحيل على معيار انتماء واع، ضرورة، إذ هو ينبني على تعارضات رمزية.

تحيل مسألة الهوية الثقافية، منطقياً وأولاً، على مسألة أكثر اتساعاً هي مسألة الهوية الاجتماعية، والتماهي أحد مكوناتها، الهوية بالنسبة إلى علم النقص الاجتماعي: أداة تمكن من التفكير في تمفصل النفسي والاجتماعي لدى الفرد، إنها تعبّر عن محصّلة التفاعلات المتنوعة بين الفرد ومحيطه الاجتماعي، قريباً كان أو بعيداً، إن هوية الفرد الاجتماعية تتميّز بمجموع انتماءاته في النسق الاجتماعي، الانتماء إلى صنف جنسي وإلى صنف عمري وإلى طبقة اجتماعية وإلى أمة، الخ... الهوية تمكن الفرد من أن يحدد لذاته موضعاً ضمن النسق الاجتماعي وأن يُحدِّد الآخرون موضعه اجتماعياً على أن الهوية الاجتماعية لا تتعلّق بالأفراد وحسب، ذلك أن لكل مجموعة هوية تتناسب مع تعريفهما الاجتماعي، ذلك التعريف الذي يمكن من تحديد موقعها ضمن الكل الاجتماعي، الهوية الاجتماعية استدماج وإقصاء، في آن معا: إنها تحدِّد المجموعة (يُعتبرون أعضاء في المجموعة من كانوا متماثلين، من ناحية ما) وتميزّها عن المجموعات الأخرى (التي يختلف أعضاؤها عن الأولين، من الناحية ذاتها). إن الهوية تبدو، من هذا المنظور، ككيفية تضيف للتمايز، نحن وهم قائمة على الاختلاف الثقافي.

* الكتاب: مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية
* الكاتب: دنيس كوش ـ ترجمة: منير السعيداني
* الناشر: المنظمة العربية للترجمة بيروت ٢٠٠٧م.



حب على مركب البحار

شعر: فضيل حلمي عبد الله

أتذكرين أول مرة تلاقينا
يوم همست في أذني
كان صوتك نغمة تسحرني
وتأخذني إلى عالمك الغريب
وإنك منذ أن عرفتني اكتشفت نفسك..
حين قلت لي:
الآن سأطوي أشرعتي وأركب الموج
سابحةً نحو شاطئك..
سأشرع صوتي للريح
وأنادي لتسمع كل البحار
ولك وحدك سأكون
سأبقى في ميناء حنانك
وأحلم بمرساتك وأستريح
فقد كدت أنسى ذاتي في صخب الموج
وثرثرات الطرقات..
وهنا معك أنا أعيد اكتشاف ذاتي..

*   *   *

أتذكرين كل هذا؟
أظنك لن تذكري..
فكل الأحلام والموجات وهمس الحواس







كان مثل زبد الموج..
ووجع الصدى
كنت أنا لك بحراً وميناءً
أعطيتك أسرار أحلامي
حلمت بهناء الأيام القادمة
بمستقبل قادم ومشرق
منحتك أوقاتي وحماقاتي
عمري ومماتي
وقرأتك شعراً في خطوط جبهاتي
ورسمتك شمساً على أوراقي
وغفوت على دفء كلامك..
جعلتك وحدك أمينة على حبي
وبك أشعلت عتم ليلي
ماذا جرى؟!
أستيقظ طبعك؟
أم نادتك الأهواء!
وبدأت تغوصين في رمال الذاكرة
لم تعودي تعرفين من أنا..
لماذا هجرت مساء شواطئي
وأصبحت نغمات صوتك مثل الأجراس تقرع
وخربشات تخدش أذني..
أين صوتك الذي أطلعته
لتسمع البحار أنك تحبينني؟!
أيها الراحلة خلف أنوثة الليل..







لا لن تبكيني قهقهات الطرق وعويل الصراخ
أيها العابرة نحو زمن الخرائط
لن أبكي في بحار الحب
سأرثي نفسي بصمت جسدي
ولن أشرع نوافذي لهمهمات الريح الآتية
لن تسقط أوراقي بجنونك المؤقت

* * *

لماذا حولت هذا المطر إلى غيمة أغص بها
يعصف حلقي بجراح ملعونة
يليق بوهن آهاتي
لماذا حولت هذا الحب إلى عزف شجي
يباغتني
يغدو حضوري غياباً
يغدو سراجي جنون امتدادي!
هما عيناك
أبحث فيهما عمّا لا أراه ويغرقني ما أرى..
أبحث عنك خلف بقايا العمر
كريم يهطل في قلبي مطر
وتبقين كما أنت بقايا انتظار
لماذا هذا الرحيل؟
لماذا حولت حبي لك إلى دخان
إلى عالم ضباب تتعثر فيه رؤاي..
لماذا حولته إلى رسالة
موقعة باسم محطات الموت
هل لأنني أحبك؟!




الاغتراب عند أبي حيان التوحيدي

بقلم:
محمد دعاوي

التوحيدي هو أبو حيان علي بن محمد بن العباس أحد علماء القرن الرابع الهجري وواحد من أعظم مفكري وفلاسفة الإسلام.

جمع بين الأدب والعلم والفقه والفلسفة وعلوم الكلام والمنطق، تتلمذ على يد كبار علماء عصره كالسيرافي والرماني وأبو بكر الشافعي وأبو الفرج النهرواني.

تعددت معارف التوحيدي وتنوعت لتعدد أساتذته وتنوع اختصاصاتهم فشملت مختلف معارف عصره من علوم اللغة كالنحو والبيان والبلاغة إلى علوم الدين كالقرآن والقراءات والفقه والحديث والتصوف إلى المباحث الفلسفية والكلامية وكان قد وصل الذروة فيها وغاية الطلب.

عمل التوحيدي في مهنة الوراقة أو ما يعرف بالطباعة في زماننا فكانت قدره الذي لم يستطع أن يتخلص منه وشكلت له رافداً ثقافياً ومعرفياً غزيراً أغنى به ثقافته وعلمه وساعد على اتساع دائرة معارفه وشمولها فقد قرأ وكتب بيده كثيراً من الكتب في كل فن وفي كل علم وانطبع كثير مما كتبه في ذهنه وحافظته سواء أكان نثراً أو شعراً.

ترك التوحيدي عدداً من الآثار تعد من أنفس الكتب التي تزدان بها المكتبة العربية ومن أخصب الإنتاج الفكري والعقلي وأسماه في حضارتنا تناول فيها أبرز المشكلات الفلسفية والقضايا المعرفية التي شغلت الفكر الإنساني وخاض في أدق المباحث العقلية والفكرية ومن هذه المؤلفات: الإمتاع والمؤانسة - المقابسات - الهوامل والشوامل - البصائر والذخائر - الإشارات الإلهية - رياض العارفين - الصداقة والصديق - مثالب الوزيرين - وغيرها..

عاش التوحيدي ظروفاً اقتصادية خانقة وظلماً من كثير من معاصريه وعدم تقدير له وإجحافاً بحقه والسبب الرئيسي في ذلك هو الحسد الذي يلقاه من الأقران في الأوساط العلمية والبيئات الثقافية فلم يأخذ المكانة الاجتماعية اللائقة به ولم يتمتع بحياة الرفاهية ورغد العيش ولا جنى ثمار النعيم المادي لتعبه وعنائه ودأبه المتواصل في التحصيل العلمي وأمضى حياته يعاني الفقر وقلة ذات اليد والصد من الأمراء والوزراء وذوي السلطان، ومع ذلك ظل يكافح في السعي لزيادة رصيده المعرفي والثقافي وفي التأليف والنسخ واحتراف الوراقة وإن لم يحظ من كل ذلك بطائل وذاق مرارة الفقر بعد أن تجرع كؤوسه مترعة.

كان التوحيدي يتألم وهو يرى غيره من الأدباء والشعراء ينعمون بالمال والجاه لدى أولي الأمر على الرغم من أن معظم هؤلاء لا يدانيه علماً أو أدباً، ولهذا غلبت عليه سمة التشاؤم ونظر نظرة سوداء إلى الدهر والناس وانعكس هذا في مجمل آثاره وكتبه فاتسمت بالبكاء والشكوى وظهر فيها الغضب والحنق والاستياء من معاصريه، ولاسيما أصحاب السلطة وذوي الأمر والنهي والقول المطاع.

وإزاء هذا الوضع كان من الطبيعي أن يعاني أبو حيان من الاغتراب ويشعر بسياطه تلسع قلبه. فكان يحس بالاغتراب والانفصال التام عن جميع أبناء عصره وهو شعور طبيعي للمفكر والمبدع.

وقد تناول التوحيدي قضية الاغتراب بالبحث والتأمل الفلسفي، وأفرد لها بالتأليف رسالة خاصة سابقاً بذلك ألبير كامو وغيره من الفلاسفة الذين بحثوا في مفهوم الاغتراب ونظّروا له بحوالي عشرة قرون.

جاءت رسالة التوحيدي عن الغريب والغربة ضمن كتابه الإشارات الإلهية واحتلت رقم اثني عشر بين رسائله البالغة أربع وخمسين رسالة في هذا الكتاب الذي قال عنه الدكتور عبد الرحمن بدوي: ((صرخة أليمة لأمل خائب تكسرت عليه نصال الخيبة بعد الخيبة وفيه عزوف رقيق ولكنه عميق عما يربطه بالعاجلة واستدعاء متوسل لكل ما تلوح منه بوارق الآجلة وفيه شعور بهوة هائلة تفغر فاهاً في نسيج وحدة الوجود وفيه طعم الرماد يتذوقه المرء في كل عبارة وإشارة)).

تعطينا هذه الرسالة وصفاً مستفيضاً لحالة أبي حيان ولاغترابه في مجتمعه وانفصاله عنه فهو يصرح في بداية رسالته التي جاءت رداً على سؤال وجه إليه من قبل أحد تلامذته - على الأغلب - بأنه وجد في حاله شاغلاً عن سائله وعن التقييد بالأمور التي حددها له هذا السائل في سؤاله عن الغريب والغربة.

جاءت الرسالة صدى مباشراً للحالات النفسية التي مر بها التوحيدي من الغربة والضياع والحرمان والفقر، وقد تحدث فيها عن ثلاثة أنماط من الاغتراب الأولى الاغتراب عن الوطن، والثانية الاغتراب داخل الوطن عن الناس، وأما النمط الثالث فهو الاغتراب عن الذات.

استمد التوحيدي آرائه في الاغتراب من تجربته الحياتية ومعاناته الشخصية وظروفه الصعبة والشدائد التي ألمت به في حياته التي كانت رحلة اغتراب كاملة وطويلة فقد عاش فقيراً بائساً في وطنه ثم فارق وطنه وتقلب في البلاد آملاً في حياة أفضل، فجرب كلا الاغترابين، الاغتراب عن الوطن والاغتراب داخل الوطن.

صحيح أن الاغتراب عن الوطن قاس لأن الإنسان يفارق أرضه وأهله وأصدقائه فيشعر بالوحشة والمرارة لكن الاغتراب في الوطن برأي التوحيدي هو أقسى وأمرّ وأشد إيلاماً فأغرب الغرباء من صار غريباً في وطنه وأبعد البعداء من كان بعيداً في محل قربه، وهذا الأمر طبيعي لأن الإنسان يتوقع الأمن والحماية والحياة الكريمة في وطنه وبين أهله، وهذا هو الطبيعي له فإن أخفق في توقعاته وظلمه أهله وأبناء قومه كان وقع ذلك في نفسه مراً قاتلاً يصعب تحمله، وظلم ذوي القربة أشد مضاضة من وقع الحسام وكثيراً ما يقاسي المفكرون وأرباب الرأي والعلماء من آلام الاغتراب في الوطن بل إنهم يعيشون حياتهم كلها في غربة داخل الوطن ويعانون أكثر فأكثر إذا حرموا حرية القول والتعبير ومنعوا من الكلام وفرض عليهم الحصار الفكري والنفسي وحوسبوا حتى على أنفاسهم وأحصيت عليهم هل تجاوز عددها الرقم الذي لا يروق للحاكم؟

إن فقدان الحرية والاضطهاد الثقافي لا بد أن يوجدان حالة من الاغتراب داخل الوطن يعيشها المبدع، يفقد معها الاتصال التام بالوسط المحيط به حتى ليغدو مقامه كمقام السيد المسيح بين اليهود وصالح في ثمود.

وأما الشكل الثالث من الاغتراب الذي ذكره أبو حيان في رسالته فهو الاغتراب عن الذات وعن العالم كله إنه اغتراب المتصوفة، فالمتصوف يعتزل الحياة والناس وينفصل عن كل ما في الوجود حتى عن نفسه ويتصل روحياً بالله وأبو حيان يحض على هذا النوع من الاغتراب فربما وجد فيه راحة روحه المعذبة، فهو اغتراب في الظاهر، لكنه في الحقيقة فناء في المحبوب وفي هذا الفناء نفي للاغتراب.

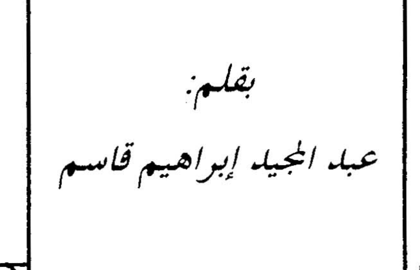
عاش التوحيدي حياة مملوءة بالبؤس والعذاب محفوفة بالفقر والحرمان ولقد وعى ما لديه من مواهب وملكات تتحين الفرصة المناسبة للتعبير عن ذاتها ولكن العقبات والعراقيل حالت دون ما تصبو إليه نفسه ولذلك صارت معاناته مضاعفة وآلامه أشد إلا أنه جعل من آلامه هذه منبع من منابع إلهامه التي ينهل من رقراقها أفكاره وفلسفته التي تنضح بنزوع عقلي عميق وبعد إنساني.

إن النبغاء إذا رافقت حياتهم أحوال مادية ومعنوية سيئة استحالت عواطفهم المكبوتة مع مرور الزمن إلى نقمة على الأوضاع الراهنة ونفرة من المجتمع، والتوحيدي صاحب المواهب المتعددة الذي تنكّر له زمانه وأهل زمانه كان يتألم من جهل معاصريه واستخفافهم بقدراته أيما ألم، فلم يجد مناصاً من اللجوء على العزلة والانكماش وبعبارة ياقوت الحموي ((يطوي منشور أمله متنزهاً ويجمع شتيت رجائه سالياً ويدعي الصبر مستمراً))..

كانت حياة التوحيدي مستفيضة بالحيوية الذهنية حافلة بالفاعلية التأليفية بقدر ما كانت مفعمة بالمتاعب والمنغصات والمعوقات المادية والمعنوية، فقد ألف كثيراً وقرأ كثيراً فحفظ أحسن ما قرأ ودون أروع ما سمع وشاهد، كما أنه شارك في قضايا عصره الفكرية والاجتماعية والعقائدية فوقف منها مواقف تتناسب ومزاجه ونزعاته الفكرية والعاطفية، فترك لنا بذلك تراثاً ضخماً متنوعاً فيه آثار أدبية وفلسفية وصوفية تشهد بتألق العبقرية وعمقها وأبعادها الإبداعية التي لا تنبجس إلا عن موهبة أصيلة وقريحة متوقدة.

إنه عبقرية فذة سبقت زمانها وكثر حسادها.

جبران ابن الشرق



جبران خليل جبران... من أكثر الأسماء بريقاً في سماء الأدب، ومن أكثر الألوان إضاءةً في أسفار قوس قزح، جبران.. الثائر على اللغة والثائر على الواقع، صاحب الفلسفة العميقة التي أينعت من تربة الأحزان كتب عن الحرية وعن المحبة وعن الإنسان وعن الحياة، فأوقد مئات الشموع في عتمة الأرواح التائهة.

كان يطمح أن يتحرّر الإنسان من قيود أهوائه، وأن يطلق لجناحيٍ روحه العنان، لتسبح في فضاء اللا حدود تارة وفي فضاء الجنون تارة أخرى، أراد للإنسان يصبح قادراً على اكتشاف ذاتِه الحقيقية وطاقاته الدفينة، كان يحاور الأزهار والطيور، يتألم لأنين الشجر، وتهمي دموعه مع ترنيمة البلبل الأسير الطافحة بالزفرات.

كان جبران ثائراً على المجتمع بعاداته القديمة وقيمه البالية، أراد بثورته تغيير الواقع الفاسد، وتحويله إلى جنةٍ على الأرض، كان طافحاً بالثقافة، فهو ابن الشرق وحامل عاداته وثقافته، وهو المشبّع بالأدب العالمي بحكم

اغترابه، كما أنه المتبحر بأسفار الكتاب المقدس.

نالت كتاباته الشهرة الواسعة، واستأثر نتاجه الإبداعي بأهمية كبيرة في المكتبة الأدبية العالمية، تناقلت كتبه الأيادي كما تناقلت كلماته الألسن.

أصبح رئيساً للرابطة العلمية التي ضمّت كبار أدباء المغترب مثل ميخائيل نعيمة وإيليا أبو ماضي، ظهرت مدلولات الطبيعة بشكل واضح في كتاباته، فكم غنّت كلماته للصباح، وكم فقدت دوحةُ روحه من أوراقها عن المغيب، كما استأثر الخيال بجزءٍ كبير من كتاباته.

عمل على تجديد اللغة وتطوير أدواتها، واستطاع أن يطرّز لها جناحين لتحلّق عالياً في سماء الإبداع، لأن لغته القائمة بذاتها انطلقت لتلامس قاع النفس البشرية وتترجم معاناة الإنسانية وطموحاتها، فكان بحق أبرز الروّاد الحداثيين في الكتابة.

من أشهر آثاره بالعربية: الأرواح المتمردة، الأجنحة المتكسرة، دمعة وابتسامة.

يقول جبران في كتابه المعرّب عن الإنكليزية (رمل وزبد):

❖ قد ولدت ثانية عندما وقع جسدي بحب نفسي وتزوجا معاً.

❖ التذكار شكل من أشكال اللقاء والنسيان شكل من أشكال الحرية.

❖ الإنسانية نهرٌ من النور يسير من أودية الأزل إلى بحر الأبد.

❖ اجعلني يا الله فريسة الأسد قبل أن تجعل الأرنب فريستي.

❖ المحبة والموت وحدَهما يغيّران كل شيء.

ويقول في (آلهة الأرض):

❖ حيث يكون الجمال.... يكون كل شيء.

❖ مجد الإنسان يبتدئ عندما تمتص شفاه الآلهة المقدسة نسمته الهائمة على غير هدى.

❖ المحبة ضحك بعيد في أعماق الروح وفجرٌ جديد على الأرض.